الخيط الأبيض والخيط الأسود

ألف عام

صراع القومية المصرية

ثلاث ملكات

أم خليل

بنت الزمار

الصعيدية

القيراط الخامس والعشرون

ألف عام

دخلت مصر فى حوزة الإسلام عام ٦٤٠ م ولم تخرج عنه منذ ذلك التاريخ . وليس أمر الفتح العربى مجرد ديانة اعتنقها المصريون رويداً ، أو حتى مجرد لغة حلّت شيئاً فشيئاً محل اللغة الرسمية للبلاد . وهى اليونانية، ثم انتهت بالتغلب على اللغة القومية القديمة . ولكن ما حدث نتيجة للفتح العربى هو أن مصر أصبحت، منذ ذلك التاريخ ، ركناً هامًّا من أركان العالم الإسلامى ، وارتبطت مصائرها بمصائر الإسلام ، وأصبحت لغتها القومية هى لغة العالم الإسلامى السائدة . وهى اللغة العربية . فمصر اليوم ، بحكم لغتها ، قطاع من العالم العربى ، وبحكم ديانتها الرسمية ، شطر من العالم الإسلامى الذى يشمل شعوباً وأمماً احتفظت بلغاتها الأصلية ، مثل إيران وتركيا والباكستان وإندونيسيا . مصر اعتنقت الإسلام ديناً ، واتخذت الضاد لغة، ولعبت دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى كله ، دوراً سياسيًّا بحكم ثرائها ونظامها ومركزها الجغرافىّ ، ودوراً ثقافيًّا بفضل جامعتها الإسلامية العتيدة .

وهذا التحول الكامل فى حياة مصر فصلها فصلا تامًّا عن تاريخها السابق على الفتح الإسلامى . ولكن من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى ،لأنها فى الواقع كانت نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ومن الخطأ أن نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسئول الأول عن هذا التخريب هم المصريون المسيحيون . فما إن أصدر الإمبراطور تيودوسيوس عام ٣٩٥ م أمره بإيقاف العبادات الوثنية فى أنحاء الإمبراطورية ، حتى راح المسيحيون المصريون يهدمون أو يخربون تلك المعابد ، أو يحيلونها إلى كنائس وبيع . وإذا كان المسيحيون المصريون احتفظوا بلغتهم القديمة، فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة المصرية الهيروغليفية والديموطيقية ، حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم

خمسة عشر قرناً . إلى أن كشف شامبوليون رموزها فى أوائل القرن التاسع عشر . فلم يكن ثمة ما يدعو المسيحيين المصريين إلى الاحتفاظ بأسرار الكتابات القديمة . وقد يسرت لهم الأحرف اليونانية كتابة لغتهم ، التى عرفت منذ ذلك الوقت باسم اللغة القبطية . وليس معنى ذلك أن الأقباط نبذوا كل شىء من تاريخهم السابق على المسيحية — وهو أمر لا يقبل عقلا — فلا شك أنهم احتفظوا بتراث علمى وطبى مختلط بالسحر . ولعل الحرص على دقة التلفظ بالتعاويذ السحرية . هو الذى شجعهم على كتابة اللغة المصرية بأحرف يونانية ، لما من حروف العلة والحركة ما لا يوجد فى الكتابات القديمة ، مما يحفظ لهذه التعاويذ صحة النطق بها ، فمن شروط فعل السحر دقة التلفظ بكلماته وتراكيبه وجمله ، وقد يكون من المهم المحافظة على تنغيم التعاويذ .

ومع ذلك فإن الشعب المصرى المسيحى كان يمثل فى غالبيته الكبرى شعب مصر القديم ، الذى احتفظ بخصائصه ، فضائله وعيوبه ، على طول الاحتلال المقدونى والرومانى والبيزنطى . ولكن لغته تأثرت دون شك باللغة اليونانية السائدة فى الهيئات الرسمية . فاستألفت ألفاظاً ومصطلحات يونانية كثيرة ، كما تأثرت طقوسه وألحانه الكنسية . وطرزه المعمارية وزخرفه . بالفن البيزنطى . بعد أن تحول الأمبراطرة الرومانيون إلى الديانة المسيحية .

وحين اعتنق المصريون فى غالبيتهم الإسلام ، لم يحتفظوا لا بلغتهم القبطية . ولا حتى بجنسهم . تمام الاحتفاظ ، فيما عدا القلة التى تمسكت بالمسيحية . وجاهدت فى الإبقاء على لغتها حية حتى قرون متأخرة . ولكن هذه اللغة انتهت . بعد القرن السادس عشر أو السابع عشر ، إلى أن تكون لغة الطقوس الكنسية فحسب . بل آلت إلى أن تكتب بحروف عربية . ويتعلمها . من يحرص على تعلمها . فى كتب مؤلفة بالعربية .

أما المصريون المسلمون فقد اختلطوا بالعرب وبغير العرب . من المسلمين الذين توافدوا على مصر فى مختلف العصور ، واستقروا فيها .

ومع أن الباحثين فى علم الأجناس يرون أن الجنس المصرى لم يتأثر فى غالبيته بذلك الاختلاط . وبرغم ما يقوله — وهو على صواب — المؤرخ إرمان من « أن

الشعب الذى سكن مصر القديمة يعيش حتى الآن فى السكان الحاليين لهذه البلاد » ، فإن الحقيقة الواقعة ، وما نراه من إحساس المصريين بعروبتهم ، تدل على انفصام كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها . فالمصرى المسلم ينظر إلى الإسلام كأساس لحضارته ؛ ويعتبر العصور السابقة على الإسلام كأنها تاريخ شعب آخر انتهى أمره . والمصرى غير المسلم يعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته . وإذا أردنا تقسيماً أدق ، فإننا نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين : إما مسلم يحس إحساساً شديداً بالجامعة الإسلامية ، بحكم افتصار دراسته وفهمه على التاريخ الإسلامى ، والدور الذى أداه الإسلام للحضارة ، وإما مسلم — أو مسيحى — يشعر بجامعة اللغة والتراث الحضارى . وهى التى تجمع شمله بالشعوب التى تتكلم اللغة العربية .

والنتيجة العملية لكل هذا ، هى أن سكان مصر ، من المسلمين . يبدأون تاريخهم الحضارى بالفتح الإسلامى ، ومن غير المسلمين ، يبدأون تاريخهم الحضارى بكرازة مرقس الرسول ، ثم يشاركون مواطنيهم المسلمين فى ثقافتهم العربية .

ولكن مصر لم تبق ، ولا يمكن أن تبقى ، بمعزل عن العالم الذى تطور منذ القرون الوسطى ، وأنشأ فى أوربا حضارة نبتت أصولها من حضارة اليونان والرومان والتوراة والإنجيل ، وأخصبتها عناية العرب ببعض معالم الفكر اليونانى . فإذا أضفنا إلى هذا أن حضارة اليونان تعترف لمصر القديمة ببعض الفضل ، وأن الحضارة العربية تأثرت فى بعض نواحيها الفنية بالفن البيزنطى ، فإن السلسلة الحضارية التى تجمع بين مصر القديمة ، ومصر المسيحية ، ومصر الإسلامية ، والحضارة الأوربية الحديثة ، سوف تضيق حلقاتها .

وما إن تتيقظ مصر ، وتفتح عيونها على حضارة أوربا ، حتى تكتشف أمراً عجيباً ، هى التى نسيت تاريخها القديم : ستكتشف أن لتاريخها الذى نسيته ، حساباً أكبر حساب ، عند أصحاب هذه الحضارة الحديثة . ستكتشف أن هؤلاء يعتبرون الحضارة الفرعونية أقدم يقظة للفكر والضمير والإحساس الإنسانى ، عرفها التاريخ . فلم يعد مقبولا أن يظل المصريون على جهلهم بحضارة أجدادهم المنسيين منهم وحدهم . ويتنبه المصريون إلى هذه الحقيقة ، وبخاصة فى عهد

التحرر . وعقب حركة سنة ١٩١٩ . وكان هذا منشأ المدرسة التى نادت بالفرعونية فى عشرينات هذا القرن . ولم تكن تلك المدرسة لتتنكر للعروبة . فما عرفنا من أقطابها إلا كتاباً فى صدارة كتاب العربية . ومفكرين من أعرف الناس بتاريخهم الإسلامى . إنما كانت حركة تحاول أن تمحى عن المصريين سبة وعاراً ، سبة جهلهم بتاريخهم . وعار ازدرائهم بأمجد حقبة من أحقاب هذا التاريخ . فإذا كنا قد صححنا . إلى حد ما . موقفنا من الحضارة المصرية القديمة . فإننا ما زلنا . مع شديد الأسف . نتنكر أو نتجاهل حقبة هامة من حقبات التاريخ المصرى . وهى الحقبة المسيحية . ونكتفى منها بكلمة أو كلمتين عن اضطهادات دقلديانوس . ثم نقفز فجأة إلى مقدمات الفتح الإسلامى .

وتاريخ مصر فى طريقة كتابته — ما زال شذريًّا مقطعاً . لا نرى فى فصوله أكثر من التتابع التاريخى . فهى فصول لا تكاد تجمعها صلة . أشبه بمجموعة قصص لأكثر من مؤلف . وحقيقة التاريخ المصرى هى فى أنه قصة واحدة طويلة . تدور حوادثها حول أشخاص عديدين . من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة . ولكن بطلها واحد ، هو الشعب المصرى .

والعلة فى هذا التقطيع هى : أولا طول التاريخ المصرى — وليس يعرف تاريخ غيره بهذا الامتداد والاتساع — ثم اختلاف وسائل دراسته . تبعاً لكل حقبة : دراسة النصوص القديمة ، والمعابد والمقابر الباقية . والحفر والتنقيب على ما يوجد منها تحت الأرض ؛ يقضى فيها الأثريون والمؤرخون طول حياتهم بحثاً وكشفاً ونقلا وتسجيلا وفك رموز وترجمة نصوص . وتطبيق ذلك على ما جاء فى تواريخ اليونان والرومان . وأقوال رحالتهم وجغرافييهم عن مصر الفرعونية . ودراسة اللغة الإغريقية واللاتينية والقبطية ، والتمرس بقراءة البرديات والشقفات والأوستراكا . والتبحر فى التاريخ اليونانى والرومانى والبيزنطى . لغة وحضارة وديانة . لمن يعنى بتاريخ مصر الهلينستية ، أو مصر الرومانية الوثنية . أو مصر المسيحية . وفى العهد الإسلامى . يضطلع المؤرخ اضطلاعاً كاملا بالحضارة الإسلامية عامة . ويعمل فى مطالعة النصوص على شواهد القبور وفى البرديات والشقفات وما إليها . بالإضافة إلى دراسة كل من أرخوا لمصر والإسلام دراسة مستفيضة .

وينشأ عن هذا الاختلاف الكبير فى الوسائل : انفصال بين مؤرخى مصر ، انفصال علمى مدرسى . يجعل من الصعب على المطلع العام أن يلم بتاريخ بلاده إلماماً موحداً . ومن يكلف نفسه مشقة قراءة هذا التاريخ مسلسلا ، ينسى فى آخره أوله ؛ ويصده عن تاريخ القراءة بعد الشقة . وانقطاع الصلة الحضارية ؛ وصعوبة فهم الديانة ، وقلة النصوص الأدبية ؛ وشعور قارئها بأن ترجمتها مهزوزة ؛ ويصده عن تاريخ البطالسة والرومان أنه تاريخ أسرة مقدونية وحضارة هلينستية ، أو أمبراطرة رومانيين . وحضارة لاتينية ، لا يكاد المؤرخون فيها يذكرون شيئاً عن الشعب المصرى ؛ ويصده عن تاريخ مصر المسيحية ، جهله بحضارة بيزنطة ، وصعوبة متابعة المناقشات الدينية التى نشبت فى العالم المسيحى . وكان الكرسى الرسولى الإسكندرى فى القرون الأولى للمسيحية طرفاً هاماً ، ومناوئاً خطيراً ، لما تتقدم به كل من روما وبيزنطة وأنطاكية . هذا إلى أن القارئ العام لا يجد بين يديه تاريخاً للحقبة المسيحية يبسط له أمور العقيدة ؛ لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول فى بعض التفاصيل . كما يتحرج المؤرخ القبطى من التبسط فيها ، إذا كان يكتب لمواطنيه جميعاً . وغالبيتهم من المسلمين . وبذلك ظلت الحقبة المسيحية تعيش فى شبه ظلام تاريخى .

ولا أحسبنا نفهم الفتح العربى . إلا إذا عرفنا مقدمات الحوادث التى تحولت فيها مصر من الوثنية إلى المسيحية . وأهملت طريقة كتابة لغتها القديمة بالحروف الديموطيقية ، والظروف التى عاشت فيها مصر المسيحية . يحكمها إمبراطور مسيحى فى بيزنطة . ويضطهد أهلها اضطهاداً أنكى وأشد من اضطهاد الأمبراطرة الوثنيين . عندئذ يمكن أن نفهم كيف انتقلت مصر من المسيحية إلى الإسلام ، وكيف أهملت لغتها القديمة . لتتخذ من لسان العرب لغتها الوحيدة .

كما لا أظن أننا نبنى قوميتنا بناء سليماً مؤسساً ؛ إلا أن ندرس تلك التحولات الروحية ؛ فإن مجرد سرد بعض الوقائع ، فيما يشبه التعمية ، قد قصم ظهر تاريخنا من وسطه . يتعين علينا أن نطالع خلال حوادث الألف عام ، التى انقضت بين غزو الإسكندر والفتح الإسلامى . حياة مصر الروحية ، وحياة الشعب المصرى خلف ستار البطالسة . والأمبراطرة الرومانيين والبيزنطيين ؛ لأننا بدون فهم تلك

الحياة ، لن نعرف من تاريخنا شيئاً غير تاريخ مصر الإسلامية . فهو التاريخ الحى فى نفوسنا إلى اليوم .

ويحسن أن نعرف أولا أن الملكية المصرية القديمة كان قد تغير وجهها منذ أمد طويل ، قبل أن يقضى الفرس القضاء النهائى على استقلال مصر . فلم يعد الفرعون فى أغلب الأسر المتأخرة مصريا . ونلاحظ أن شعبين أو ثلاثة من الشعوب الأجنبية بدءوا التغلغل فى الحياة المصرية . أولها شعب لوبيا . وقد كان كبير الكهنة فى طيبة يحمل اسماً لوبياً وهو « مصحرتا » . والغالب أن التوغل الاولى كان أبرز فى الطبقة العسكرية . وكانت الأسرة الثانية بعد العشرين . عندما ارتقى شيشونق عرش مصر فى بوباسطيس ، لوبية خالصة . وجاء بعدهم الإثيوبيون ، ولم يكونوا سوداً بل كانوا من أصل لوبى ، ويحملون أسماء لوبية . وكان ملوك الأسرتين الرابعة بعد العشرين . والسادسة والعشرين ، – وهذه الأخيرة هى الأسرة الصاوية – من أصل لوبى أيضاً . والغالب أن ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين ، والثلاثين . كانوا غير خلصاء الدم المصرى . والدم الأجنبى قبل أن يجرى فى عروق الفراعنة . كان قد جرى فى أوعية العسكريين المعروفين بالمشواشة . ووقعت على عاتق هذا الجيش الأجنبى مهمة الدفاع عن الاستقلال المصرى .

وجاءت الجنود المرتزقة الإغريق بعد ذلك . ومرتزقة آسيا الصغرى ، ليحلوا محل المشاواشة . ولم يتناول هذا المزج سوى الطبقات الحاكمة والعسكرية . وبقى المصريون . كما نرجو أن يبقوا على صفحات الزمن . خلصاً . يحتفظون بصفاتهم الأصيلة . ويواصلون عملهم الحضارى فى الزراعة والصناعة والعمارة والفنون . مثل أجدادهم .

ومراكز الحكم . فى الأسر الفرعونية الأخيرة . تحولت من الجنوب إلى الشمال . وتبعتها المراكز الدينية . وإذا كانت طيبة ، وثالوثها « آمون – موت خونصو » . قد احتفظت بمقامها إبان حكم الأسرة التانيسية والبوباسطية . فقد بدأت تتزوى رويداً . وتفقد أهميتها حيال معابد منف وصا وأتريب وبوطو ومنديس وسمنود . وحيال آلهة هذه المعابد من أمثال إمحوتب بن فتاح . ونيط إلهة السماء ، وبسطيط الحرة . وهاتور البقرة . ولا يبقى من البانتيون القديم سوى إله العالم

السفلى ، أوزيريس ، وأخته وزوجته إيزيس ، وابنهما هوروس . وظل المصريون ينقشون النصوص المقدسة على نواويسهم وتوابيتهم ، ويرسمون صور الحياة العامة والحياة المنزلية على جدران مقابرهم ، ويجمعون نصوص كتاب الأموات فى نحو مائتى فصل .

وظاهر أن العبادة المصرية القديمة كانت فى طريقها إلى الانحلال والتدهور ، حتى أمست مجرد طقوس ومتون قديمة . غلب عليها السحر ؛ كما أن عبادة الحيوانات أخذت تنتشر ، ولم تعد تلك الحيوانات ، كما فى الماضى ، رموزاً للآلهة ، بل أخذت تعبد لذاتها .

وكانت مصر قد فتحت أبوابها للتجار الأجانب ، فدخلت السفن الفينيقية إلى مصر عن طريق فروع الدلتا ، وعليها التجار الآسيويون ؛ وجاءها تجار الإغريق وميليتيا . وعندما استقر حال البلاد ، واستتب الأمر لبساماتيك ، من ملوك آخر الأسرات الفرعونية ، كان هؤلاء التجار قد ألفوا جاليات تجارية وصناعية هامة . ولم تعد صا ونوقراطيس . وحدهما ، مراكز الجاليات اليونانية بل إن منف ، ومدن الدلتا الكبرى ، احتوت على أحياء إغريقية كاملة . وبذلك توطدت العلاقات بين بلاد اليونان ومصر ، وتبادلا السلع التى ينتجانها ، أو يستوردانها من فينقيا وبابل وبلاد العرب السعيدة وإثيوبيا ، كالزيت والنبيذ والغلال والذهب والنحاس والبخور والأعطار والطيب والأفاويه والعاج واللازورد والأخشاب .

وكان رواج التبادل التجارى مصدر ثراء لخزينة فرعون ، مما يسر له إنشاء المعابد الكبرى فى صا ومنف وواحة آمون . وأخذ الإغريق ينقلون إلى بلادهم حكايات عن وادى النيل ، وأوصافاً تختلط فيها الحقائق بالأساطير والخرافات ، مما آثار فضول محبى المعرفة من أهل المدن اليونانية ، فوفدوا على مصر ، ليحققوا بأنفسهم ما سمعوه على ألسنة النواتية والتجار الرحالين .

أى أنه كان لتلك الوشائج الاقتصادية الفضل فى أن يزور مصر رجال كبار ، من أمثال المشرع الأثينى صولون ، والفلاسفة والعلماء من أمثال يودكسيس الكنيدوسى وفيثاغورس وطاليس ، بل وأفلاطون العظيم بذاته . وقضى هؤلاء بمنف أعواماً يدرسون ويتعلمون ؛ وذلك قبل أن يفد على مصر ذلك المخبر الصحفى الأول فى التاريخ ، المولود فى هاليكارناس ، ليدبج مقالاته المثيرة عن مصر ، ويجمعها

فى الكتاب الثانى . من تاريخه المشهور . بعنوان « أوتربا » . كان لهذه المقالات أكبر حظ من الذيوع فى العالم القديم والحديث على السواء . ضمن ما ذاع مما يعرف باسم « تواريخ هيرودوتس » . ونقول العالم الحديث . لأن العالم لم يكن يعرف عن مصر . حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر . غير ما ورد فى كتابات هيرودتس وديودورس واسطرابون و بوليبيوس و يوسيفوس وجرجس سنسيلوس . إلى حد أن يقول برستيد عام ١٩٣٣ . فى الفصل الأول من كتابه عن الفكر المصرى المسمى : « فجر الضمير » . بأن الكشف عن آلاف الأعوام من تاريخ الشرق ، أمره قريب منا . فالترجمة الإنجليزية لكتاب رولان المسمى « التاريخ القديم » مع أن مؤلفه لم يكن تحت يده إلا أكثر قليلا من كتاب هيرودوتس والتوراة كمصادر لتاريخ الشرق القديم . كانت ما تزال تعرض منها نسخ فى واجهات المكتبات بالبلاد الأميريكية . ويذكر برستيد جيداً أن كتاب رولان هذا كان ذائعاً أيام حداثته.

والواقع أن الحضارة والصناعة والعقائد المصرية العتيقة . تركت أثرها فى حياة الإغريق الأوائل . وغير الإغريق . من شعوب العالم القديم . هذا إلى أن عبادة إيزيس . بالذات . انتشرت فى العالم الهلينستى والرومانى .

وعندما جاء الإسكندر إلى مصر . اعتبر نفسه وريثاً لحضارتين : الفرعونية واليونانية . وأخذ عنه بطليموس بن لاجوس سياسته فى معاملة المصريين معاملة شعب عريق صديق . وحرص البطالسة بعده على هذه السياسة . بل حاولوا أن يوائموا بين عقائدهم السطحية . وبين ديانة المصريين المليئة بالأسرار . ولكنهم أخفقوا أمام احتفاظ المصريين بديانتهم . وكرههم أن يتدخل الغرباء فى طقوسهم ، وأن ينفذوا إلى دخائل إيمانهم .

وليس معنى هذا أن البطالسة تنكروا لحضارتهم . فلم يكن بطليموس سوتر ولا أولاده وأحفاده . فى غنى عن وطنهم الأصلى . ولكن مبادئ الإسكندر فى المواءمة بين الشرق والغرب [أى بين حضارات الشرق الأدنى والحضارة اليونانية] هى التى أقام عليها البطالسة والسلوقيون الحضارة المعروفة بالهلينستية .

وأنشأ سوتر لأهل وطنه مدينة بطليموسة [بطوليمايس] فى الطيبائيدة . فأضاف بذلك مدينة جديدة إلى مدن الجاليات اليونانية بمصر .

ولا نعرف مصدر الهداية فى إنشاء عبادة مزدوجة ، اتخذت أهمية خاصة فى العالم الغريقوروماني . وهى عبادة سيرابيس [أوزير — أبيس] ؛ أي العجل أبيس الذى مات وارتفع إلى مرتبة الآلهة ، فأصبح أوزيريس . أو هذا الإله البزرميط ، يتقمص عند اليونانيين شكلا إغريقياً محضاً ، يشبه كبير آلهتهم زفس ؛ أو إله العالم السفلى آذيس . ويجتمع سيرابيس مع إيزيس والابن هوروس [وهو هاربوكراتس اليونان] فى الثالوث الذى كان يعبد بهيكل الإسكندرية الأكبر ، أى السرابيوم مقام سرابيس . والغالب أن يكون بطليموس الأول هو الهادى إلى تلك العبادة .

وليس معنى حرص المصريين على تقاليدهم وطقوسهم . أن لم يأخذوا عن اليونان شيئاً البتة . فقد نقل المصري عن اليونانيين طريقة رى الأراضى بواسطة الساقية والطنبور ، كما تخلى عن مئزره المصرى القديم ليلبس الجلابية اليونانية .

وسينقل إلى المصريين بعض الفن اليونانى ، ويظهر أثره المهجن فى مقابر كوم الشقافة ، والصور الجنائزية الملونة على ألواح الخشب ، التى عرفت فى الفيوم ومصر الوسطى . وستتأثر مصر الرومانية بالفن البيزنطى . وهو نفسه فن هلينستى ؛ امتزج فيه الفن اليونانى والرومانى والفارسى ؛ ومن بعض ذلك المزيج سوف يخرج الفن الإسلامى فى مطالعه .

والحياة الهلينستية كانت تتشابه حول الحوض الشرقى لبحر الروم . وعواصمها كانت الإسكندرية وأنطاكية وأثينا ، ثم برجامة فيما بعد . واحتفظت الفلسفة فى أثينا بمكانها المفضل . بينما نزعت الإسكندرية إلى البحوث العلمية واللغوية والأدبية فى مدرستها الكبرى [الموزيون] . ومكتبة القصر الملكى المشهورة . والمكتبة الفرعية الملحقة بالسرابيوم . معبد الإله سيرابيس .

وظهرت بالإسكندرية أسماء إقليدس وأرشميدس . عندما وفدا على مدرستها ليتصلا بالعلامة إراطوسطين ؛ وكان هبارخوس يمثل مدرسة الفلك فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهيرون يختص بالميكانيكا إبان القرن الأول ، واشتهر فى الطب هيروفيلوس الخلقدونى . وإرازسطراطس اليولى ؛ وفى تاريخ أدب اللغة كليماخوس . أما التحقيق العلمى للنصوص الأدبية . وبخاصة أشعار هوميروس . فقد أفلق فيه زينودوطس الإفسوسى ، وأرسطوفانس البيزنطى ، وأرستارخوس .

لم يكن للمصريين أدنى علاقة بما يجرى فى مدرسة الإسكندرية من دراسات وبحوث ، فهم يواصلون بناء معابدهم الكبرى فى إدفو وكوم امبو ودندرة . أما يهود الإسكندرية ، وكانوا يؤلفون جالية كبيرة وغنية . فكانوا يمالئون الغالب ، ويتملقون الحكام — مثلما فعل أحفادهم . يهود شمالى أفريقيا فى القرن التاسع عشر بعد احتلال الفرنسيين للجزائر — ويبلغون فى تصنعهم الحضارة الإغريقية حد نسيان غالبيتهم اللغة العبرية ، حتى ليضطر فقهاؤهم إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية ، وهى الترجمة المشهورة باسم السبعينية ، إشارة إلى الاثنين وسبعين عالماً الذين اشتركوا أو أشرفوا على تلك الترجمة .

فلنتصور الحالة على وجهها الصحيح : حكام أجانب وجاليات أجنبيه ، تحيا حياتها الهلينستية ، وتنظر إلى الأهالى نظرة تشبه إلى حد كبير نظرة الجاليات الأجنبية إلى المصريين فيما بين القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . نظرة فيها تعال واستهتار ، لا يحدهما إلا مجرد الاحترام الظاهرى لعقائدهم وطقوسهم . ولم يكن أولئك الأجانب يعنون لا باللغة الوطنية . ولا بالتاريخ الفرعونى ، مع أن الكاهن المصرى مانيتون وضع تاريخاً للأسرات باللغة اليونانية . ولو كان هذا التاريخ متداولا لعثرنا على بعض نسخه ، أما أن يختفى تماماً فى حريق مكتبة الإسكندرية . فهذا دليل على عدم انتشار الكتاب . وإنما ألفه الكاهن السمنودى بتكليف رسمى من بطليموس الثانى ، ووضعه هذا فى المكتبة الكبرى سجلا ومرجعاً لا غير ! ولولا أن المؤرخ يوسيفوس اضطر اضطراراً إلى الرجوع إلى هذا الكتاب ليرد على أبيون الذى وسم اليهود بكل نقيصة . ولولا بعض المؤرخين المسيحيين . فيما بعد . لضاع حتى اسم ذلك المؤرخ المصرى القديم .

وكان أهل البلاد المحتقرون المهانون لا ينفكون يضرعون إلى آلهتهم ليخلصوهم من كل أولئك الغرباء ، وتتحرك ألسنة آلهتهم بالنبوءات ، تبشرهم بالتخلص وشيكاً من النير اليونانى . وتنشب ثورة مصرية فى الدلتا . وتنتقل إلى الصعيد ، فى القرن الثانى قبل الميلاد . ويحكم الأمير هارماخيس فى الصعيد كملك مستقل ، ويتحصن الثوار فى معبد إدفو ، وتستمر هذه الثورة حتى يقضى عليها بطليموس العاشر ، ويدمر العاصمة القديمة طيبة . ويحدثنا المؤرخ بوليبيوس عن زعماء تلك الثورة ،

ويسميهم الأمراء الملكيين . والغالب أن جلهم كانوا من كبار الكهنة .

وفى هذا القرن الثانى قبل الميلاد ، يبدأ نجم روما فى الصعود . بعد ختام حربها الثانية مع قرطاجة [٢١٧ ق.م. : الحرب البونية الثانية] وينتهى التوسع الرومانى فى الشرق حتما إلى الاصطدام بالمقدونيين . مما يدفع ملك مقدونيا إلى التحالف مع عدو روما الأكبر . هانيبال .

وينتزع الملك السلوقى أنطيوخوس الكبير سوريا من مصر . وتسلخ مدن آسيا الصغرى من حكم البطالسة . ولا يبقى لهؤلاء خارج مصر من أملاك سوى جزيرة قبرص . وبعض بلاد لوبيا .

وبدأت روما فى القرن الأول قبل الميلاد تتحشر فى ثنايا التاريخ المصرى . بعد أن ضمت مقدونيا إلى ملكها ، ثم أخضعت اليونان . ومحت قرطاجة من على وجه البسيطة ، وتسلمت أرض برقة . تنفيذاً لوصية أبله من ملوك البطالسة [عام ٩٧ قبل الميلاد] .

وما إن سقط متريداتس الرابع ، ملك البونطس [حول البحر الأسود] . تحت ضربات القواد سيلا [٨٧ - ٨٥ ق. م.] ولوكولاوس [٧٧ - ٦٧ ق. م.] وبومبيوس الكبير [٦٦ - ٦٢ ق. م.] حتى تم إخضاع منطقة الشرق الأدنى لروما . وأصبحت مصر محاطة بالولايات الرومانية من كل جانب . وكان الحزب الشعبى فى السيناتو الرومانى يطمع فى تملك مصر . وجاء فى قانون الإصلاح الزراعى . الذى اقترحه رولوس على المجلس . وهو يفرض إعادة تقسيم الأراضى بين الفلاحين الرومانيين . أن تكون الأراضى المصرية ضمن ما يعاد توزيعه من أراضى الممتلكات الرومانية فيما وراء البحر ! مع أن مصر كانت فى ذلك الوقت دولة مستقلة يحكمها اللاجيديون . وإنما فعل رولوس هذ استناداً إلى وصية نسبت زوراً إلى أحد أمراء البطالسة . ولم يتأخر ضم مصر فعلا إلا لأن حزب الأرستقراطيين - الأوبتماتس - بزعامة القنصل سيسيرون . قاوم قانون رولوس مقاومة عنيفة ، حالت دون الموافقة عليه .

والأمير اللاجيدى ، الذى زيفت الوصية باسمه ، كان شاباً اسمه اسكندر يعيش فى روما ، وهو ابن بطليموس اسكندر الأول . فلما مات اسكندر هذا ، تولت العرش ابنته ، باسم الملكة برنيقة الثالثة . وكانت محبوبة من الإسكندريين ، فأوفد الدكتاتور الرومانى سيلا الشاب إسكندر ، ليتزوج أخته ، ويحكم إلى جانبها باسم اسكندر الثانى. وما عتم هذا الغر أن قتل برنيقة ، ففتك به الإسكندريون وسط الملعب عام ٨٠ قبل الميلاد . وخلا العرش اللاجيدى ، وذاعت وصية الأحمق إسكندر الثانى بوضع مصر فى حمى الشعب الرومانى . فاضطر الإسكندريون إلى تولية ابن غير شرعى للبطالسة وزوجوه أخته كليوباترة السادسة ، ولقب بطليموس فيلوباتر فيلادلفوس ، ولكن الشعب لقبه بالزمار (أوليتس أى عازف الناى) ، وفى هذه الأثناء ابتلعت روما جزيرة قبرص ، وقاومت الاعتراف بالزمار عشرين عاماً . وما إن اعترفت به حتى ثار عليه الإسكندريون ، ففر هارباً إلى روما ، وتولت ابنته برنيقة عرش مصر . ويعود الزمار إلى عرشه مؤيداً من القائد بومبيوس الكبير ، فيأمر بقتل ابنته ، ويملك حتى موته ، عام ٥١ ق.م.

ثم يبدأ العهد المشئوم ، فى صورة المشاحنات والصراع بين كليوباترة السابعة ، ابنة بطليموس الزمار ، وبين شقيقها الغلام . وهذه هى كليوباترة التى اشتهرت فى التاريخ بمغامراتها السياسية والغرامية ، مع ابن بومبيوس الكبير ، ويوليوس قيصر ، ومارك أنطونيوس ، ومن يدرى من غير هؤلاء !

وتنتهى مغامرات بنت الزمار بانتحارها ، وانتقال مصر إلى ملك شخصى لأغسطس أكتافيانوس قيصر ؛ وهذا هو التحول الكبير فى تاريخ مصر ، تنزل فيه من دولة مستقلة تحكمها أسرة أجنبية ، إلى ولاية تابعة لإمبراطورية فيما وراء البحر ، عاصمتها روما ، ثم القسطنطينية . وستظل ولاية تحت حكم العرب ، حتى تستقل بها الأسرة الطولونية فالإخشيدية فالفاطمية فالأيوبية فالمماليك البحرية فالبرجية . وستعود ولاية مرة ثانية بعد غزو سليم بن عثمان فى أوائل القرن السادس عشر ، وتظل تابعة ولو اسمياً لتركيا ، حتى أوائل القرن العشرين .

ولقد تحسنت الأحوال بمصر فى القرن الأول من الاحتلال الرومانى . وفيما عدا

سيطرة المراقب المالى الرومانى — الإيدوس لوجوس — على المعابد المصرية ، وأوقافها الشاسعة ، لم تتدخل إمبراطورية روما فى ديانة المصريين ولا فى طقوسهم ؛ وواصل المصريون إقامة معابدهم وتجديدها فى دندرة وفيليه .

ولو سئل أمبراطرة الرومان عن قيمة مصر لهم لأجابوا توًّا : الغلال والجزية . فلم يشترك المصريون فى الجحافل الرومان ، ولا كانت لهم كلمة بين حكام الإمبراطورية . بل لقد منعوا من أن يكونوا مواطنين رومانيين ، على خلاف المعمول به فى الولايات الرومانية ، وبالأولى لم ينتخب منهم أعضاء بمجلس الشيوخ « السناتو » ؛ ولم ينبغ من المصريين تحت الحكم الرومانى علماء وأهل ثقافة ، مثلما حدث فى ولايات آسيا الصغرى واليونان . ومع أن الرومان كانوا يتعجبون من الديانة المصرية العتيقة ، ويعتقدون بأن الكهان المصريين مستودع أسرار خفية ، فإن نظرتهم إلى طقوس الشعب المصرى . وإغراقه فى عبادة الحيوانات ، كانت مليئة بالاحتقار . وإذ دعى أغسطس قيصر ذات مرة للاشتراك فى الاحتفاء بالعجل أبيس . أجاب الداعين بنصف أنفه : « درجت على عبادة الآلهة ، لا الثيران ! » . وكان الرومان يقاومون السحرة والمشعوذين المصريين الذين كان يدّعون تمثيل الديانة المصرية فى الخارج ، كما اعتبروا عبادة سيرابيس وإيزيس من المؤثرات الضارة فى المجتمع الرومانى . ولم تدم مقاومتهم طويلا ، فقد أنشئ أول معبد رسمى فى روما لسيرابيس وإيزيس فى عهد دومطيانوس قيصر (٨١ — ٩٦م) ، وأقيم فى حكمه معبد إسنا [لاطوبوليس أى مدينة الإله لاطس ، وهو سمك اللفش] . وجاء إلى مصر يوڤينال ، الشاعر الساخر الهجاء ، ضابطاً فى جيش الاحتلال . بمعسكر أسوان ؛ فعرف بأمر خناقة بين أهل دندرة وكوم امبو على عبادة التمساح . وراح يتندر ، فى إحدى قصائده ، بالمصريين وعبادتهم للبهائم .

وفى حكم أدريانوس قيصر [١١٧ — ١٣٨ م] قامت ثورة مصرية من تلك الثورات التى لم تخرج عن نطاق محدود . والتى كانت الجيوش الرومانية تقمعها فوراً . وزار أدريانوس مصر مرتين . اصطحب فى إحداهما زوجته سابينا ، وذهبا مع صحبهم فى رحلة سياحية إلى الصعيد ؛ وشاهدوا تمثالى « ممنون» ، وسمعوا صوت

الصفير الذى كان ينبعث من أحد التمثالين عند مطلع الشمس : وسجلت الشاعرة بلبلة ، إحدى سيدات الحاشية ، ذكرى الزيارة فى قصيدة نقشتها على ساق التمثال . قالت فيها :

« ولقد استمعت ، أنا بلبلة ، الجرس الحلو الذى يخرج من فامينوت أو ممنون ، تحت هذه الصخرة ، وحياه أدريانوس ثلاث مرات . وأنشدت بلبلة هذه الأشعار « تذكاراً للصوت الذى أيد حب الآلهة لأديانوس . »

وكانت زيارة أدريانوس لطيبة عام ١٣٠ ميلادية ، وقد عنى عناية خاصة بمدرسة الإسكندرية . وعين لها أساتذة غير مقيمين . ولا قائمين بتدريس ، إنما أراد أن يشرف الجامعة بهم . أو يشرفهم بالانتساب إليها .

وكتب أدريانوس لقريبه سرفيانوس يصف زيارته لمصر :

« لقد تقصيت أحوال مصر ، يا عزيزى سرفيانوس ، مصر التى كنت تشيد بها . فإذا هى بلاد طائشة ، قلّب ، لا تكف عن المشاغبة . ووجدت فيها عباد سيرابيس نصارى . وأولئك الذين يدعون الولاية المسيحية فى لباس الأساقفة ، يعبدون هم أيضاً سيرابيس . فليس فى مصر حاخام ولا قس ولا كاهن ولا عراف ولا عياف لا يعبد سيرابيس . وفى ظنى أن كاهننا الكبير ، لو جاء إلى مصر ، لعبد سرابيس أو المسيح . والشعب هنا فى الإسكندرية شعب يحتدم ثورة ، سليط اللسان ، شديد الغرور . المدينة تفيض ثراء ، وتعمل وتنتج حتى لا تجد فيها عاطلا . أهلها أرباب حرف وصنائع ، وما أكثر نساج الكتان فيها . ولن ترى حتى الأعمى ، ولا المقعد ، خالى شغل . وللجميع ، من مسيحيين ويهود وغيرهم ، رب واحد . والمدينة جديرة حقاً بأن تكون عاصمة مصر . ولو أنى كنت أرجو أن تلزم شيئاً من النظام . لم أرفض لها طلباً . وأعدت إليها حقوقها القديمة ، بل وأكثر ، حتى يكونوا راضين عن حاضرهم . وما إن أدرت ظهرى حتى سلقوا ابنى فيروس بألسنة حداد ، وأترك لك أن تتصور ما قالوه عن أنطنوس ! »

وهذا الإمبراطور ، العلامة الساخر ، جاء إلى مصر ومعه خليله الأمرد أنطنوس ، فاخترمه النيل ، وقيل بأن الغلام مات منتحراً . فأقام له الإمبراطور

معبداً باسمه . فى مكان قرية الشيخ عبادة حالا . بمدينة كانت تعرف باسم أدريانوبوليس أو أنطنوبوليس .

وممن سخر بمصر . من كتاب الرومان . بروكوبيوس ، ويوحنا الليدى ، وأنسطاس . وأوناب . وكانوا يقولون بأن الأهرام ليست سوى شنشنة كلفت أموالا باهظة . وجهوداً مضنية . وكانو يحتقرون « هذا الجنس المصرى الذى لا يخرج من بين صفوفه أديب . وعلماؤه اللاهوتيون لا قدرة لهم على التفكير العميق » .

وفى عهد مرقس أوريليوس قيصر . الفيلسوف الرواقى المشهور (١٦١ – ١٨٠م) تنشب ثورة مصرية فى برارى الدلتا وبحيراتها . تزعمها الكاهن إيزيدورس . وقام بها على رأس الفلاحين بمنطقة شرق الإسكندرية . تعرف باسم « بوكوليا » . أى مرعى البقر . وكسر الجند الرومانى وبلغ أبواب الإسكندرية . فأنفذ إليهم الإمبراطور جحافله الرومانية التى تحتل سورية . بقيادة حاكمها . فقضى على الثورة بالحيلة والوقيعة بين الثوار .

وعندما أصدر الإمبراطور كاراكلا مرسوم عام ٢١٢ م . الذى أوسع فيه مدى التمتع بالرعوية الرومانية . طبق على سكان مصر . . . فيما عدا المصريين !

هذا كان حال مصر طوال السنوات التى انقضت منذ غزو الإسكندر : ذلة وهوان وثورات . لا أمل فيها للتخلص من حكم الرومان ، وتدهور العقائد الدينية . بالرغم من مواصلة إنشاء المعابد . ومظاهر الطقوس الألفية البراقة .

وتجىء النصرانية إلى مصر ، لا لتغير من حال أهلها . ولا لتجعلهم أقدر على القتال . بل لتكون ذريعة جديدة للإمعان فى إذلالهم . وإنزال الهوان بهم فوق كل هوان .

ولو أنك استجمعت كل الظروف والمحن التى مرت بالمصريين . منذ قضى الفرس على استقلالها . حتى آخر العهد الرومانى والبيزنطى . لما توقعت سوى نتيجة واحدة : هى القضاء على القومية المصرية . إن لم يكن محو المصريين من على وجه الأرض . وما عليك إلا أن تتأمل ماحدث فى بلاد الغال وإيبريا وداقيا (رومانيا) حيث تحولت تلك البلاد الكبيرة إلى مقاطعات لاتينية ، وكانت لغة الرومان هى

الأصل فى تكوين اللغات الفرنسية والأسبانية ولغة رومانيا الحديثة . وما زال أهل تلك البلاد يعتزون بأصلهم اللاتينى .

ومع ذلك . لم تستطع كل تلك الأرزاء والإحن أن تقضى على القومية المصرية . وكلما زادت محنتهم . كلما ازدادوا استمساكاً بقوميتهم . وسوف يقدم لنا تاريخ المسيحية فى مصر أروع صور مقاومة المصريين للغرباء . وهى حقبة رهيبة رائعة فى وقت واحد . سنعود إليها فى الفصل التالى . وإنما هذه صورة رسالة حفظها لنا تاريخ المسيحية فى مصر . كتبها البابا أثناسيوس . بطريرك الكنيسة القبطية . يصف واقعة من الأحداث الكثيرة التى جرت فى عهد ولايته . كما حدثت من قبل ومن بعد . قال يصف محاصرة آلاف من الجنود البيزنطيين . لكنيسة العذراء بالإسكندرية وقت الغروب :

« أما أنا فجلست على الكرسى الخاص بى . وأوعزت إلى الشماس أن يتلو المزمور السادس والثلاثين بعد المائة . وكان المصلون يرددون قائلين « هو الرحيم إلى أبد الآبدين » . وحان وقت الانصراف . وكان الظلام قد بدأ يهوى على خارج الكنيسة . وشرع العسكر يطرقون أبوابها طرقاً عنيفاً . . . ثم فتحوا الأبواب عنوة . واقتحم الجيش الرومانى الكنيسة . ورجاله يزعقون كمن فتحوا مدينة حصينة . وكانت سيوفهم تلمع فى ضوء أسرجة الكنيسة . واندفعوا كالسيل الجارف متجهين إلى حيث أجلس . فوقفت وأمرت الناس أن ينجوا بأنفسهم . ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن بعضهم حاول اعتراض الجند فى طريقهم إلىّ . فذبحهم الجنود ذبحاً . وداسوهم بأقدامهم . وتعقبوا الفارين منهم . وألح القساوسة علىّ كى أنجو بنفسى فأبيت قائلا : « ليست نفسى بأعز علىّ من نفوس الآخرين » . وكنت موقناً بأن ثباتى فى مكانى . أمام الساعين إلى حتفى . سيجعل الجنود ينصرفون إلى شخصى . ويتركون الآخرين . فعولت أن أبقى حتى ينجو الشعب . . . ولما انصرف أكثر الناس . جاء الرهبان . مع من تخلفوا من القساوسة . وحملونى خارجاً » .

فهل كان أولئك الجند الروم من الوثنيين ؟ كلا بل هم جنود الإمبراطور

البيزنطى المسيحى ، فى العام السادس والخمسين بعد الثلاثمائة من الميلاد ! والذى لا يعرفه إلا قلة من المصريين — وما أقل المصريين معرفة بتاريخهم ! — هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الأمبراطرة الوثنيين ساويرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية ، التى أقرها أعظم المجامع الكنسية ، وأولاها بالاحترام ، وهو المجمع المسكونى الأول ، المنعقد بمدينة نيقيا ، فى آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م .

ذهب أثناسيوس إلى هذا المجمع شماساً وسكرتيراً للبطريرك ألكساندروس الأول ، ولم تحل رتبته الكنسية الصغيرة ولا شبابه ، دون الاشتراك فى مناقشات المجمع ومداراساته . وبعد ما ارتقى إلى كرسى مرقس الرسول ، حاز هذا البطريرك الاسكندرى العظيم فى حياته المفعمة بالجهاد والنفى والتشريد ، لقب « قاضى المسيحية فى العالم » ، وقال غريغوريوس النازيانزى عنه : « رأس كنيسة الإسكندرية هو رأس كنائس العالم » .

ولكن الآراء تشعبت بعد مجمع نيقيا ، واختلفت فى طبيعة المسيح ، بسبب المذهب الذى نادى به القس آريوس المولود عام ٢٧٠ م بشمال أفريقيا . وهو المذهب الذى قسم العالم المسيحى قسمة خطيرة ، وأثار أعاصير هوجاء بين عواصم المسيحية حينذاك : الإسكندرية وروما والقسطنطينية وأنطاكية وإفيسوس . وتشابكت المؤامرات واستحكمت حلقاتها حول إمبراطور القسطنطينية وإمبراطورتها ، لمناصرة آريوس على أثناسيوس .

ومصدر الخلاف قول آريوس بأن « الابن يختلف عن الآب فى الجوهر ، وأن الآب أقدم من الابن ، لأن الابن مخلوق » ، وفى هذا مناقضة خطيرة لقانون العقيدة المسيحية الذى نادى به المجمع النيقاوى ونصه :

« نؤمن بإله واحد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يُرى وما لا يرى . ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور ، إله حق ، من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، والذى به كان كل شىء نزل من السماء .

وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . اتخذ شكله الإنسى من أجل البشر وخلاص البشر . فتألم وصلب فى عهد بيلاطس البنطى ، ودفن ، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث ، كما جاء فى الكتب ، وصعد إلى السماء » .

ويصعب على كاتب مسلم أن يخوض فى تفاصيل هذه المناقشة التى اتخذت أشكالا وأوضاعاً خطيرة بعد أثناسيوس ، مدارها طبيعة المسيح . فالمسيحيون لا يختلفون فى أمر ألوهية المسيح ، وإنما الخلاف على إله عرفه الناس فى صورة بشر . فهل هذا الإنسان المخلوق ، المولود من أنثى ، هو الإله ، أو أن عنصره اللاهوتى ، وأصله كلمة الله تجسدت ، وهى تمر فى جسد العذراء ، لم يتحد بعنصره الناسوتى ؟ وبمعنى آخر : هناك المسيح ، وهو الرب ، ويسوع وهو ابن الإنسان ، ولدته مريم العذراء .

والعالم المسيحى اليوم ينقسم إلى غالبية كبرى تؤمن بعدم اختلاط الطبيعتين : اللاهوتية والناسوتية . وتؤمن بأن الآلام والصلب والدفن نزلت بالطبيعة الناسوتية وحدها ، دون الطبيعة اللاهوتية ، التى لا تخضع لما يخضع له الجسم الحائل الزائل . وهذه هى العقيدة المعروفة بعقيدة الطبيعتين فى المسيح ، مذهب الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية [الملكية] ، ومذهب الكاثوليكية البابوية ، وهى التى أقرها مجمع خلقدونيا ضد البطريرك القبطى ديوسقوروس عام ٤٥١ م . ومع أن الكاثوليك يقولون بأن المسيح أقنوم لا هوتى بحت ، فإن ذلك لا ينفى اعتقادهم بأنه اثنان ، بعد قولهم بأن له كيانين وذاتين وطبيعتين .

أما الأقباط ، وكنيسة الحبشة ، وبعض الكنائس بالشرق الأدنى ، فتقول بالطبيعة الواحدة ، حسب ما قرر مجمع نيقيا . وعبر ساويرس الأنطاكى عنها بقوله : « إذا قلنا بطبيعة واحدة للمسيح ، من طبيعتى اللاهوت والناسوت ، نقول أيضاً إن ذلك يكون بغير امتزاج ولا اختلاط ولا فساد ، بل مع بقائهما على ما كانتا عليه . فطبيعة البشر من طبيعتى الروح والبدن ، وطبيعة الروح من طبيعة الهيولى ، أما البدن فهو صورة الجسد ؛ فلا تنقلب الروح بدناً ، ولا الهيولى جسداً ، ولا يحدث العكس » .

والكاثوليك مع إيمانهم بالطبيعتين ، يعتقدون بأن العذراء هى أم الرب

[ثيوتوكوس] ، فيرد عليهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قائلين : « إن اعتقادكم بأن العذراء أم الإله تسليم بطبيعة واحدة للمسيح : فهل ولدت مريم إلهاً أم إنساناً ؟ إن قلتم إلهاً ضللتم ، لأن الإله لا يولد ؛ وإن قلتم إنساناً كانت العذراء أم إنسان لا أم إله ، وذلك تنكرونه ؛ وإن قلتم ولدت إلهاً وإنساناً ، كانت أم إله وأم إنسان ، فلها ابنان ، أحدهما إله ،والآخر إنسان ، وهذا قول ينقضه العقل ويزيفه ؛ فإذاً لا يصح إلا أن الإله والإنسان صارا واحداً ، ولذلك ولدت مريم واحداً ، لاهو إله بالإطلاق ، ولا هو إنسان بالإطلاق ، ولا هو إله وإنسان فى وقت واحد ، بل هو إله متأنس ، وهذا هو الحق » .

ويقول البطريرك الإسكندرى الكبير كيرلس الأول ، فى كتاب إلى القيصر ثيودوسيوس :

« إننا لا نعرى الناسوت من اللاهوت ، ولا نعرى كلمة الرب من الناسوت ، بعد ذلك الاتحاد الغامض ، الذى لا يمكن تفسيره . بل نعترف أن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتمعا إلى واحد مؤلف من كليهما ، لا بهدم الطبيعتين ، ولا باختلاطهما ، بل باتحاد شريف فى الغاية ، تمّ بوجه عجيب » .

لعلنا جاوزنا الحد ، كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام خلقه الله الذى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، إذ ذكرنا كل هذه التفاصيل . ولكن أمر ذلك ضرورى لفهم ما قام بين المصريين وحكامهم الروم ، بعد أن سادت الشعبين ديانة واحدة ، من جفوة وكره وعداء ، هى التى نشرحها فى هذا الفصل ، وفى الفصل الذى يليه ، لندرك موقف المصريين من أعظم حادث فى تاريخ مصر ، وهو الفتح الإسلامى ، الذى غير لغتها ، وسلكها فى التوحيد ، وربط أقدارها بأقدار العالم العربى .

وقد لا نرى كمسلمين أن هذه الخلافات تعدو أن تكون اختلافات فى تفسير شىء واحد ، يتفق المسيحيون عليه ، وهو ألوهية المسيح . ولقد اقترح بعض من حاولوا التوفيق بين المذهبين المتعارضين إضافة حرف واحد إلى كلمة Homo-ousion [ومعناها المساوى فى الجوهر] التى نحتها أثناسيوس فى مجمع نيقيا ، فتكون الصفة

هى Homoi-ousion [ومعناها المشابه فى الجوهر] . فيرد أنصار الطبيعة الواحدة قائلين : الفرق بين الصيغتين حرف واحد هو « يوتا » ، ولكن ما أعظم الفرق بين اللفظين فى المعنى !

فى سبيل هذه « اليوتا » وقف أثناسيوس ضد الإمبراطور البيزنطى ، وضد بابا روما ، بل ضد العالم المسيحى فى أغلبه . وحقت عليه الكلمة المأثورة : « كل العالم ضد أثناسيوس ، وأثناسيوس ضد العالم » .

ولم تكن فى الحق مجرد « يوتا » ، أو مجرد خلاف فى العقيدة ، بل كانت روح مقاومة وطنية أذكت أوارها المسيحية ، وهى نفس الروح التى أملت على المصريين ترجمة الأناجيل إلى اللغة القبطية . وحافظت على لغة الآباء والأجداد ، وهى اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية . مدى ألف عام بعد غزو الإسكندر . وألف عام بعد الفتح الإسلامى . هى هى التى قاومت الفكر الهلينستى ، ومدرسة الإسكندرية القديمة ، وأقامت لمعارضتها مدرسة الكاتشيسس [الديدسقلية] . روح المقاومة الوطنية هى التى حرمت على مصر ورود منابع الحضارة الإغريقية . علماً وفلسفة وأدباً . فإذا كان ثمن هذا فادحاً ، فإن معناه القوى لا يمكن أن يغيب عنا ، وهو شدة مقاومة المصرى لغزاته ؛ مقاومة روحية .

وتتخذ المقاومة صورة جديدة . فى الحركة الدينية التى تعد من مآثر الكنيسة المصرية على العالم المسيحى : ألا وهى حركة الرهبنة والتبتل والانفراد للتعبد . ولم يكن الانفراد والتعبد جديداً على المصريين . فقد عرفوه فى عهد الأسرات ، ونقله عنهم « الترابيوتاى » ، الذين روى عنهم فيلون الإسكندرى أنهم كانوا رهطاً من بنى إسرائيل هجروا متاع الدنيا . وخرجوا رجالا ونساء إلى أرباض الإسكندرية فى منطقة مريوط ، يتأملون الإلهيات . ويقيمون الصلوات ، ويسبحون بالمزامير والترانيم .

ويقال بأن أول دير مسيحى تأسس عام ١٥١ م ، حين أزمع فرونتينوس هجر العامر إلى الغامر ، زاهداً فى الدنيا ، فضم إليه جماعة من المجتوين أمثاله ، وسار بهم إلى وادى النطرون . هناك قضوا بقية حياتهم فى النسك والتعبد . آوين إلى بعض الكهوف الصحراوية .

ولكن مؤسسى الرهبنة فى مصر ، على التحقيق ، هما القديسان بولا [أو بولس] ،

المولود فى طيبة عام ٢٢٨ ، وأنطونيوس ؛ وقد بدأت بالتوحد والانفراد . والمعروف عن حياة مار أنطونيوس أنه ولد بمدينة كوما من أعمال بنى سويف عام ٢٥١ ، وأنه نشأ فى قريته محبًّا للعزلة ، وخرج عام ٢٨٥ إلى الصحراء الشرقية ، حيث وجد حصناً مهجوراً يعرف بحصن « بسبار » أو « بسبير » ، عاش فيه عشرين سنة ، اجتمع حوله عدد من التلاميذ ، وانتهى بأن غادرهم متوغلا فى جوف الصحراء ، مصعداً فى سلسلة جبال العرب ، حتى وجد مكاناً لا يسهل الوصول إليه . وكان أنبا أنطونيوس يعود إلى تلاميذه فى بسبار ، ويسافر إلى الإسكندرية ليواسى المضطهدين فى سجونهم وهم رهن المحاكمة ، ويشد أزرهم قبيل استشهادهم الرهيب ، وليحيى البطريرك أثناسيوس فى عوداته من المنفى . وعاش أنطونيوس حتى العام الخامس بعد المائة وتنيح سنة ٣٥٦ م .

وتطورت الرهبنة فى عهد أمونيوس ومكاريوس إلى ما يعرف برهبنة الشركة ، أى عندما يشترك الرهبان فى المعيشة ، ويتعاونون فى القيام بالأعمال المنزلية واليدوية ، كلما فرغوا من صلواتهم وعباداتهم .

وجاء من بعدهم أنبا شنودة وأنبا باخوم ، فنظما جمعيات الرهبنة ، وسنا لها القوانين ، ووضعا لها القواعد .

والرهبنة فى مصر تعرف فى ثلاثة أوضاع : رهبنة النساك ، وهم سكان الأديرة ، ورهبنة الزهاد ، وهم يتوحدون فى الخلوات والصوامع الصحراوية والجبلية ، ورهبنة المتبتلين الذين يجتمعون فى المدن اثنين أو ثلاثة ولا يتزوجون .

وأنبا مكاريوس : أو أبو مقار الكبير ، ولد بالصعيد ، وقيل بشنشور منوفية سنة ٣٠١ ؛ وهو منشئ دير البراموس ، ودير أبى مقار ، بوادى النطرون .

أما أبو الشركة فهو أنبا باخوم ، منظم حياة الجماعة بالأديرة تبعاً لقانون واحد ، وتحت رئيس واحد . وقد بدأ حياته جنديًّا وثنيًّا فى الجيش الرومانى ، وحارب فى الحبشة ، ثم ترك الجندية وذهب إلى أسقف دندرة الأب سرابامون ، وتعمد على يديه ؛ ثم خرج إلى البرية ، وتتلمذ على أحد شيوخها : الأنبا بلامون ، الذى أنذره بأن « حياة السواح أشد قسوة مما يتصورها » . ولما اجتاز التجربة ، ألبسه إسكيم الرهبنة .

اشتهر أمر هذه الأديرة فى العالم المسيحى . ووفد على مصر كثير من الأجانب ، كتبوا عما رأوه فى البرية . ومنهم روفينوس والقديس هيرونيموس [سان جيروم مترجم الإنجيل إلى اللاتينية] ، وكاسيانوس . والقديس أرسانيوس . وأنبا باسليوس الكبير . منشئ الرهبنة فى اليونان ، وهيلاريون . مؤسس الرهبنة فى فلسطين . وتحول هؤلاء دعاة للرهبنة المصرية فى الشرق والغرب . وأرخ لها بلاسيوس فى أوائل القرن الخامس . ومن بين زوار الزهاد والعباد والنساك سيدات من أشراف الدولة الرومانية الشرقية والغربية . من أمثال السيدة باولا ، والسيدة ملانيا ، التى جاءت إلى مصر بصحبة سان جيروم (هيرونيموس) .

وكانت جماعة الرهبان تظاهر البطاركة المصريين فى دفاعهم عن العقيدة المصرية ، سواء فى الإسكندرية أو فى شتى المجامع الكنسية المشهورة .

ولم تقف مقاومة المصريين عند حدود التمسك بالعقيدة ، بل اتخذت مظهراً إيجابياً فى ثورات محلية ، لم تكن تجدى نفعاً حيال السيطرة الرومانية الجبارة . وأهم تلك الثورات ، ثورة « الإخوان الثلاثة » : قامت فى أوائل حكم القيصر موريس [سنة ٥٨٢] عندما تحرك الإخوة أبو سخيرون ومينا ويعقوب . ببلدة « أبكيله » [زاوية صقر مركز أبى حمص بحيرة] . يحتجون على اعتقال حاكم سمنود لاثنين من عظماء القبط ، وتبعهم الأهلون ، فتهيأ حاكم الإسكندرية لقمعها . بعد أن امتد لهيب الثورة إلى غالب أقاليم الوجه البحرى . وبلغ الثائرون أبواب الإسكندرية ، وتمكنوا من منع الحنطة عنها . كما استطاع إسحاق . ابن الأخ الأكبر . من الاستيلاء على مراكب الغلال المخصصة للقسطنطينية .

وانتهى أمر تلك الثورة بوقوف حاكم الإسكندرية أمام الثائرين يهدد بإعدام القبطيين المعتقلين . وثلاثة آخرين من كبار الأقباط ، فاضطر الثوار إلى الانفضاض عن الإخوة الثلاثة . وهرب هؤلاء إلى صان ، ثم قبض عليهم وشهروا فى الإسكندرية ، ووضعوا فى السجن حيث جزت رقابهم .

ومن الثورات المحلية : ثورات صان وخربتا وبسطة وسنهور وإخميم وغيرها ، أخفقت كلها وأغرقت فى دماء المذابح الوحشية . وتلاها طرد المصريين من الوظائف العامة . هذا كان حال مصر فى القرن السادس .

ويدخل القرن السابع الميلادى ، ويتولى الكرازة المرقسية البطريرك الثامن والثلاثون ، المسمى بنيامين الأول سنة ٦٢٠ ، فى حكم الإمبراطور هرقل . ويوفد إلى مصر وال بيزنطى من نوع جديد ، عينه هرقل حاكماً مدنيًّا ، وبطريركاً ملكيًّا ، فى الوقت نفسه ، وهو قوروش [المقوقس] . ولم ير الإمبراطور أن يتحدى شعور المصريين فى أول الأمر ؛ فقد استشار بطريرك القسطنطينية ، وبطريرك أنطاكية فى أمر توحيد المذاهب المسيحية على مبدأ جديد ، وهو أن المسيح واحد ، وفعله واحد ، ومشيئته واحدة ، دون إشارة إلى وحدة الطبيعة أو ازدواجها . ولم تخف على المصريين حيلة المستعمر ، ورفض البطريرك المصرى الاعتراف بممثل الإمبراطور ، بطريركاً ملكيًّا ؛ فاضطهد وهرب إلى برية الإسقيط [برية شهات] ، بوادى النطرون ، حيث لم يجد سوى قلة من الرهبان ، بعد أن عاث الفرس فساداً وتقتيلا ، إبان العشر السنوات التى سلخوا فيها مصر عن الحكم الرومانى ، وتركوا برية المتوحدين والشركاء قاعاً صفصفا . فذهب بنيامين إلى الصعيد حيث ظل مختبئاً عشر سنوات ، بعد أن أوصى أساقفته بالاختفاء ؛ فأطاعه البعض وبقى الأكثرون ، وضل عدد كبير منهم . وأقام هرقل أساقفة خلقدونيين ملكيين فى طول البلاد وعرضها ، واضطهد المصريين اضطهاداً ذريعاً .

وهجم عمرو بن العاص على مصر ، وكان يجمع إلى القيادة العسكرية الباهرة ، حكمة السياسى وسماحته ، متأثراً فى ذلك رئيسه ، الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وما إن تم لعمرو فتح مصر ، حتى قرب إليه الأقباط ؛ وكتب إلى البطريرك بنيامين (أبى الميامين) يؤمنه ، ويدعوه إليه ؛ فلبى الرجل الدعوة ، واستقبله عمرو استقبالا حسناً . ومن المأثور عن ابن العاص قوله فى جيشه : « حدثنى عمر ، أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لكم فيها صهراً وذمة ، فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم » .

وسمع الرهبان فى مخابئهم الصحراوية . وصوامعهم الجبلية ، بأمر قوم جاءوا من الشرق ، ليقضوا على الروم المارقين . فاحتشدت حشودهم ، ووفدت على القائد عمرو ، فى جماعات كثيرة ، تحييه ، وتستبشر بقدومه ، وهو معجب

بتلك الوجوه السمراء . والشعور الشعثاء . والمسوح المهلهلة . لا تكاد تغطى أجساداً أوهنها الزهد . وضمرتها العبادة . ويطيب لى أن أتصور ابن العاص ناظراً إلى جيش الحفاة أولئك . وهو العربى المتقشف بطبيعته ، قائد أمير المؤمنين المتواضع ، الذى كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ، ويشتمل بالعباءة . ويحمل القربة على كتفه ، مع هيبة قد رزقها ، وكانت رحله مشدودة بالليف : أتصور ابن العاص متأملا هذه الإنسانية الخشنة ، فإذا به يقارنها بما رأى من بذخ الروم الفاضح . فيكره الإسكندرية وحياتها . التى تنم عن الترف والسرف .

إلا أن السياسة السمحاء التى سار عليها عمرو . لم تدم طويلا بعد مقتل أعظم الخلفاء . واستبدال عمرو بغيره من الولاة . وجاءت ولاية عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠ . وكان أبوه مشغولا بقتال أبى العباس ، فاشتد على الأقباط فقاوموه ، وثار سكان البشمور فى براريها شمالى الدلتا وخيراتها ، وقاموا على عمال الخراج فقتلوهم . وكبسهم عسكر عبد الملك . فقاوموه وانتصروا عليه ، بقيادة مينا بن بقيرة . وجاء مروان إلى مصر فاراً من وجه أبى العباس ، وجرد عليهم الجند وقهرهم ، فتحصنوا فى براريهم وسياحاتهم ، فلم يستطع مطاردتهم ، واكتفى بحصارهم . فكان البشموريون يخرجون إليهم ليلا ، ويديرون فيهم القتل حتى اضطروهم إلى الرحيل ، وذهب مروان إلى الصعيد يشفى غليله . حتى انتهى أمره بانتصار منشئ الدولة العباسية .

وظاهر الأقباط هذه الدولة الإسلامية الجديدة . فأمنهم أبو العباس عن نية حسنة . وانتجاعاً للعدالة . ولكن بعد مصر عن عاصمة الخلافة . وقصر مدة الولاة فى مناصبهم ، ساعدا على التراخى فى تنفيذ السياسة العادلة ، فعادت الحالة إلى ما كانت عليه فى الدولة الأموية .

وآخر الثورات المصرية انفجرت فى عهد المأمون . واستفحلت . مما اضطر معها المأمون إلى معالجتها بنفسه . فجاء إلى مصر ، وكبح جماحها . وظفر بالثائرين ظفراً كاملا . وعقب تلك الثورة الأخيرة ، بدأ عدد الأقباط يتناقص . إذ أسلم منهم حوالى ربعهم . وما إن ينسلخ القرن التاسع الميلادى ، حتى تدين الغالبية من سكان مصر بالإسلام ، وتكون اللغة العربية قد زحزحت اللغة اليونانية

عن دواوين الحكم ، وبدأت تحتل مكان اللغة القبطية فى المعاملات بين الناس . فإذا جاء القرن الحادى عشر ، ظهرت كتب قواعد النحو القبطى مكتوبة بالعربية ، وظهرت قواميس قبطية عربية ، ألفها أقباط ، أخذت أسماؤهم تنتحل الطابع العربى . عندما زار الأب فانسليب الصعيد عام ١٦٧٢ — ١٦٧٣ ، بلغ أسيوط ، وتعرف بمطران المدينة أنبا يؤنس ، ويقول فانسليب إن « المطران عرفه بقبطى اسمه المعلم أثناسيوس . كان الرجل الوحيد فى مصر العليا العارف بلغة بلاده ، أى بالقبطية . ولكننى لم أستفد منه كثيراً ، فالرجل بلغ من العمر ثمانين عاماً وكان أصم . وعلى أية حال ، فقد رأيت الرجل الذى ينحدر إلى القبر ، فتدفن معه اللغة القبطية ، نهائياً . » وهذه مبالغة رحالة ، لأن القبطية ظلت لغة طقوس الكنيسة ، وقال الأثرى كوبيل فى القرن الماضى ، إن القس دافيد سترونج قابل بعض العجائز ، فذكروا له أنهم سمعوا فى شبابهم بعض الصعايدة يتخاطبون باللغة القبطية .

ويشهد كاتب هذه السطور أنه عرف أسرة يتحدث أعضاؤها فيما بينهم بالقبطية ، نتيجة محاولة محدودة جداً لإحياء تلك اللغة . ولكن أمثال هذه المحاولة كان لها أثرها فى عناية مواطنينا وإخواننا الأقباط بالمحافظة على اللغة التى يتكلمها المصريون منذ فجر تاريخهم .

* * *

هذه خلاصة التاريخ المصرى منذ نهاية الأسرات حتى مجىء المأمون إلى مصر ، أى فى نحو ثلاثة عشر قرناً ، لم يفت فى عضد المصريين اضطهاد ولا ظلم ولا جبروت .

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يتابع تصوير المصريين ، وقد تحولت غالبيتهم العظمى إلى الإسلام ، كشعب حريص على شخصيته ، متمسك بعقيدته . وإذا كان المصريون الأقباط قد نسوا تاريخهم الفرعونى ، وفقدوا أسرار الكتابة المصرية القديمة ، وخربوا المعابد والمدافن ، أو حولوها إلى كنائس وصوامع ، وإذا كان المصريون المسلمون قد نسوا تاريخهم الوثنى والمسيحى ، ولم يحافظوا على لغتهم العتيقة ، كما حافظ غيرهم من المسلمين على لغاتهم ، فإن تاريخ مصر

الإسلامية الذى يمتد إلى أربعة عشر قرناً . مؤيد بذاته لحظ المصريين الدائم من الحضارة . فما كان أسرعهم إلى أن يجعلوا من مصر واسطة عقد العروبة ، وأن يحولوا الأزهر . وقد بدأ مدرسة للشيعة ، مركزاً عالمياً للدراسات الإسلامية ؛ وما زال الجامع الأزهر حصن اللغة الحصين . وحصن السنة ، الحافظ الأعظم لتراث الإسلام .

وليس أروع عندى من كلمة ذلك الباشا العثمانى فى آخر القرن الثامن عشر ، ومصر فى حضيض من المهانة والذل والفقر والعذاب . وكان يستقبل مشايخ الأزهر ، فيناقشهم ويباحثهم فى الرياضيات فيحجمون . لأنهم لا يعرفون هذه العلوم . فيتعجب الباشا ويقول مستنكراً :

« المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ! »

صراع القومية المصرية

كانت مصر دائماً — وما فتئت — موضع عجب الرحالة وإعجابهم . ونتقبل نحن المصريين هذا الإعجاب قضية مسلمة ، كأنه واجب على الناس جميعاً أن يعجبوا بمصر القديمة والحديثة ومصر الغد ، ولا نتساءل عن بواعث هذا الإعجاب . ولو تساءلنا حقًّا لعنينا أول ما عنينا بمعرفة ما قاله عنا هيرودوتس فى كتابه الثانى المعنون « أوترپى » . فقد كان ابن هاليركارناس من أول الرحالين العظماء الذين زاروا مصر ودوّنوا أثر زيارتهم فى الكتب ، وكانت زيارته إبان الحكم الفارسى .

وواضح أن مصدر عجب الرحالة هو اختلاف طبائع المصريين عما عهده الناس فى العالم القديم ، وأن هيرودوتس أعجب أيضاً بالحكمة المودعة فى قلوب أهل مصر ، وبتقاليدها العتيقة ، وبمظاهر حضاراتها ، واطمئنانها إلى أنها أقدم شعوب العالم ؛ فقد كان الكهنة يقولون لزائريهم من اليونان ما أنتم أيها الإغريق سوى أطفال بالنسبة لنا .

والرومان ، وإن تندروا بعبادة المصريين للحيوانات ، أشادوا كغيرهم بنظام المصريين فى ريهم وصرفهم ، وفى وسائلهم لاتقاء غوائل الفيضان العالى أو المنخفض . كل هذه ، وما أضافته الحضارات التالية التى قامت فى وادى النيل ، تفسر ولا شك عناية الرواد بمصر منذ القدم . فالسائح اليوم ، كما كان فى القرن الماضى ، وكما كان أيام ڤولنيه وساڤارى ، ومن قبلهما نوردن وسونينى وبوكوك ونيبور ، يتأمل فى إعجاب ما خلفته الحضارات المصرية من آثار .

وقصة اكتشاف التاريخ المصرى القديم فى ذاتها قصة بالغة الروعة ، حرصنا أن نلم بها فى بعض فصول هذا الكتاب . ولكننا ، أهل البلاد أو زائريها ، ننسى دائماً ، فى إعجابنا ، المسئول الأول عما نتأثر به . فالأهرام والبرابى والتقويم ونصوص الأهرام والكنائس والبيع والمدارس والمساجد والأضرحة المملوكية ، كل هذه الآثار توحى إلينا بأسماء الملوك والخلفاء والسلاطين ، وننسى منشئها الفعلى ، وهو الشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى يقف خلف كل هذه الروائع ثابتاً للرزايا والمحن .

وننساه لأنه غير مسمى ، فلا هو بطليموس ولا رمسيس ولا هو الناصر محمد ابن قلاوون . ننساه وهو الماثل أمام عيوننا اليوم ، كما كان منذ الألف وثلاثة الآلاف وستة الآلاف من السنين . فالفلاح المصرى اليوم ، هو نفسه فلاح آلاف السنين ، لا فى نوع التفكير ، ولا فى لغته ولا فى عقيدته ، ولا فى لباسه — وإن كان المظنون أن لبس الفلاح اليوم هو « الكلاميدة » اليونانية من أيام البطالسة — ولكن فيما له علاقة بالأرض والرى والزراعة ، يخرج إلى الحقل ويعود إلى مأواه البدائى ، يتزوج ويخلف الأولاد أيادى عاملة ، وينام هو وهم والبهائم والدواجن فيما يكاد يكون مكاناً واحداً ، ينظر إلى العمدة وشيخ البلد نظرته إلى صاحب السلطان ؛ هذه هى وحدة المصرى عبر تاريخه . وحدة الحياة على ضفاف النيل .

وأهم منها وحدة الشقاء الناشئ عن الاستغلال : استغلال رجل المدينة صاحب الأرض ، وكاهن المعبد ، وممثل السلطة . وقصة الشقاء هذه لا تتغير بتغير الأشخاص : جناب اللورد فى قصر الدوبارة ، وأفندينا فى القصر العالى ، ومولانا ظل الله على الأرض فى المابين ، والملك الإله فى القصر الكبير « فر — عاو » . قاع الصورة واحد لا يتغير . مظلم عابس نياخ بكلكله . وحياة الفلاح ترسف فى سلاسل محكمة الحلقات . لا فكاك له منها : المال للحكومة ، والسخرة للدولة ، وكل شىء لصاحب الأرض : أى للمملوك المالك ، والباشا ، ورجل الدين ، والاستراتيجوس الرومانى نائباً عن قيصر . والبطليموس . وكل من حكم به عليه الزمان من قديم الزمان .

وساكن المدن فى عهود الذلة ، وتحت حكم الأجانب ، خضع لظروف ربما كانت أقسى من ظروف الفلاح ، بسبب آلامه الروحية : كان اليونانى يحتقر المصرى ، وكان اليهودى — المماليء لليونانى — يحتقر المصرى ؛ وجاء الرومان ينظرون إليهم جميعاً من علٍ . ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب على أمره ، ولا كان الولاة العرب ، فيما عدا عمرو بن العاص ، وقلة ممن حذوا حذوه فى المائة عام الأولى من حكم الولاة العرب . فالنقمة الطويلة ممسكة بخناق الشعب المصرى على يد حكامه الأكراد والترك والشراكسة والصقالبة والفرغانيين والمغاربة . وجاء حكم العثمانيين

ضغثاً على إبالة ، وفى أعقابهم الدلاة والأرنؤد . وعاد الفرنسيون إلى مصر — بعد اعتداءاتهم الأولى أيام الصليبيين أمورى ، وجان دى بريين . ولويس التاسع — ثلاث مرات : الأولى بقيادة بونابارت . والأخيرة إلى جانب العصابات الصهيونية ، والثانية بفضل أسرة محمد على ، عندما دعاهم الباشا رأس الأسرة ليقيموا مشروعات استغلاله الأنانى . وليستنبطوا له شتى احتكاراته فى الزراعة والصناعة ، وحتى فى شئون الكيف .

وأتعس ما بليت به مصر فى القرن التاسع عشر هو جيش المغامرين من الشرق والغرب . نزلوا ببر مصر وليس لهم شرعة إلا الكسب . وما أقرب أن يتحول الكسب نهباً عندما ينزل الأفاق بقوم سذج سليمى الطوية . جاءت طغمة الغرباء يعملون تجاراً وأصحاب صناعات واحتكارات ومرابين ولصوصاً وقوادين . وبدأ أغلبهم ذليلاً لينتهى سيداً مطاعاً . بفضل الباشا والخديو ، وبفضل زخرف الحضارة الذى طالب به الباشا والخديو ، لمجرد الزهو والاستمتاع . وتحول بعض أولئك المغامرين إلى وسطاء فوزراء ، وانتهت مأساة السفه بالديون الثقال واحتلال البريطانيين . وكان المغامرون عون المحتل فى الدواوين وفى الأعمال الحرة .

لم يكن المصرى يملك شيئاً من أرضه ، ولا من غير أرضه . كلها إقطاعات للفرعون وأسرته . وللمعبد وسدنته . ثم لبطليموس فالإمبراطور فى رومة وفى بيزنطة . ثم للخلفاء فى شبه جزيرة العرب جنوباً وشمالا ، ولمن جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب . أبناء طولون والإخشيد والفاطميين والأيوبيين والمماليك والباشوات وأسيادهم فى الأستانة ، ثم لأسرة محمد على والمقربين منها ، فللدائنين والمرابين ، وأخيراً للباشوات والبكوات المصريين أنفسهم ، وهؤلاء لم يكونوا أرحم من الغرباء ، ولا أضعف أثرة من سابقيهم أو لاحقيهم أصحاب الشركات الكبرى ، زراعية أو صناعية .

تطالعك على مدى الأجيال نظرة الحاكم إلى مصر نأى عنها أم قرب . فابن عفان يعزل عمرو بن العاص ، ثم يعرض بسياسته المعتدلة فى فرض الضرائب قائلاً : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » ، فيجيبه أعدل من ولى مصر : « ولكنها أضرت بوليدها » . ويقول الإمبراطور الرومانى طيباريوس لعامله فى مصر :

« لقد أوفدتك لتجز صوف الشاة لا لتسلخها » . ويقول البك الألفى لجليسه : « الإنسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه أن يرفق بها فى العلف ، حتى تدر وتسمن وتنتج له النعاج ، بخلاف ما إذا أجاعها وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى إذا ذبحها لا يجد بها لحماً ولا دهناً . » ، فيجيبه المملوك جليسه : « هذا ما اعتدناه وربينا عليه . »

تلك نظرة حكام مصر جميعاً منذ فجر التاريخ حتى القرن العشرين ، سواء أجاعوها وأجحفوها ، أو ترفقوا بها فى العلف حتى تسمن . فمصر هى البقرة الحلوب ، واللقحة التى تدر ، والشاة التى يجز صوفها فى أرفق وسائل الحكم .

معجزة هذا الشعب المصرى إذن ليست فى الحضارة التى وهبها للعالم فحسب ، إنما فى أن يظل الشعب حيًّا متمكن الشخصية ، لا يفنى فى غزاته ومستغليه . شعب زارع بناء صناع اليدين ، صانع حضارة ، سواء حكمه محب للعلم ، ذواقة للفن ، أو عيهور مغامر . شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضاً .

وإلا فإننى أطلب تفسيراً لهذه الظاهرة الثابتة فى التاريخ المصرى : بناء المصاطب والأهرام والبرابى ، وإقامة التماثيل والمدافن ، وإنشاء الكنائس والأديرة ، فالمدارس والجوامع والقصور والأضرحة ، وحفر الترع وإقامة الخزانات ، ووصل البحرين سواء عن طريق النيل ، أو مباشرة بين القلزم والفرما . ثم من كان يصنع الأثواب الشرب ، والدبيقى والتنيسى ، والقباطى الإخميمية ؟ ومن قام بزينة المساجد ومنابرها ، والكنائس وهياكلها ؟ ومن رسم الصور الشعبية على الخشب ، ووضعها فى توابيت الفيوم والبهنسا ؟ ومن قام على مدرسة الكهنوت فى هليوبوليس ، ومن فتح مدرسة اللاهوت المسيحى « الديدسقلية » فى مواجهة مدرسة الإسكندرية الوثنية ؟ ومن أنشأ الجامعة الأزهرية ؟ أكان الفرعون والقائد الفاطمى والسلطان المملوكى ودلسبس ومحمد على وغيرهم ممن حفظ التاريخ أسماءهم مقرونة بتلك الأعمال العمرانية ؟ أو أنه ذلك المجهول المفترى عليه : الشعب المصرى ؟

طالع الصورة الحية التى رسمها وكيل القنصل البريطانى أيام محمد على ، وهو يصف حال الفلاحين المصريين عندما أصاب الطاعون ماشيتهم : لقد رآهم يربطون الحمار مع الجمل لجر المحراث ، وشهدهم يتكاتفون جماعات ليجروا محاريثهم فى

سبيل خصاصة من العيش ، كى لا يموتوا جوعاً . كل هذا الجهد الجبار لمجرد حفنة من الأذرة ، وقليل من المش وخشاش الأرض ، وهدمة زرقاء !

يتأخر الفيضان وينخفض منسوبه ، فينزل القحط بالبلاد ، ويحل الوباء بأهلها ، ويهلك الطاعون مواشيهم ؛ ويرتكب حكام مصر كل موبقة دون رادع ، لسبب ولغير سبب ؛ ومع هذا يعود الشعب إلى حقله ، أو إلى مقعده أمام النول وآلة الخراطة وفرن الزجاج ومعمل التفريخ ؛ يعود إلى مطرقته يكفت النحاس بالفضة ، وإلى كتبه ينسخها ، ومصاحفه يوشيها ويجلدها ، وقد نسى ما حل به . يستأنف نشاطه الحضارى ، لأن جبلة الحياة فيه تتصل بصميم تربته السمراء وشمسه ونيله ، ولأن أحلام نفسه الوادعة لا تتعدى الرقعة السوداء يحيلها زمرداً . والخضرة اليانعة يجنيها نضاراً . جبلة الحياة فى هذا الشعب هى الحضارة نفسها . فهو ، فى شعوب الأرض طرًّا ، مثال رجل الاستقرار والسلام. ومع ذلك لم يمنح السلام والاستقرار فى تاريخه إلا قليلاً .

عندما خمدت نار الفتنة فى مصر وهدأت الأحوال ، شرع المأمون فى تسكين جأش الناس فصار يطوف بالبلاد يتفقد أحوال الرعية ؛ ومر بضيعة تسمى طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها ؛ وجاءته عجوز اسمها ماريا ، هى صاحبة القرية ، وأخذت تصيح عليه ، فوقف لها وسألها عما تريد ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى ، فأتوسل إليك أن تشرفنى بحلولك فى ضيعتى ، كى لا تشمت بى الأعداء » . فأجابها المأمون إلى طلبها ؛ وقدمت له ولابنيه المعتصم والعباس ومن معهم من فاخر الطعام شيئاً كثيراً . فلما أصبح الصباح وقد اعتزم الرحيل ، حضرت إليه ومعها عشر وصيفات فى يد كل واحدة طبق . فقال المأمون لمن معه : « جاءتكم القبطية بهدية ريفية » ، وإذا فى كل طبق كيس من ذهب . فأمرها بإعادة الهدية ، فقالت له : « لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا يا أمير المؤمنين » . فلم يسعه إلا إجابة طلبها ، ثم سألها : « من أين لك كل هذا ؟ » فأجابت : « يا أمير المؤمنين ! هذا . . . » — وأشارت إلى الذهب ، ثم انحنت فتناولت حفنة من الطين رفعتها فى وجه المأمون لتقول : « من هذا . . . ثم من عدلك يا أمير المؤمنين » .

تلك كلمة الشعب المصرى لحكامه : « لا أطلب منك إلا أن تجرى فى أحكامك بين الناس بالعدل ، وأن ترعى شئونهم بالرفق : ثم افعل ما بدا لك بعد ذلك ، ما دمت تتركنى أعمل فى وادى الخصيب » .

فى هذه الجملة خلاصة تاريخ مصر كله : الحكم الصالح يقى المصريين شر الفيضان العالى والنيل المنخفض . وقديماً استطاع يوسف الصديق أن يحسن التدبير ، فيجتاز بمصر السنوات العجاف .

اعتنق الشعب المصرى المسيحية ، بعد أن فقد الإيمان بآلهته القديمة فتخلى عنها إذ شعر بأنها تخلت عنه منذ زمن طويل ، ورأى كيف يمالىء كهنته السلطان الأجنبى . واستشهد المصرى متمسكاً بعقيدته المسيحية ، عندما فرضت عليه روما عبادة إمبراطورها ، واستشهد أكثر ما استشهد عندما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يفرض عليه مذهباً مسيحياً بعينه ، يخالف مذهبه المصرى .

آمن بالإسلام فلم يحمه إسلامه من اضطهاد الولاة والحكام والسلاطين والباشوات ، ولم يكن حظه خيراً — إلا قليلاً — من حظ أخيه المصرى الذى بقى على مسيحيته .

ليتعبد وثنياً ، أو ليؤمن بعيسى ، أو لينطق بالشهادتين ، فلعنة حكامه قائمة دائمة ، لا تفارقه أبد الدهر . يحارب الوثنية نصرانياً ، ويعارض الأرثوذكسية الملكية قبطياً ، ويقاوم الصليبيين مسلماً ، ولن يغير كل هذا من شراهة حكامه المخادعين ، ولن يغير ما بنفوسهم من نهم الاستيلاء على أرضه ، وخيرات أرضه وصناعته . لأن بغيتهم كلهم من الحكم ، هى عرق جبينه ودمه ، ونتاج عقله وذراعيه .

والشعب المصرى المغلوب على أمره ، انتصر دائماً على ظلمته ، ولو بعد حين ؛ إذ لم يستطع حكامه أن يدلسوا عليه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم فى نفسه ، وعانى ذلهم وظلمهم ، ليحتفظ لنفسه ، مدى ستة آلاف سنة ، بأعز ما يملك ، ألا وهى إنسانيته المتحضرة ، وشخصيته المتكاملة .

ولست ألقى هنا الكلام جزافاً ، فقد طالعت تاريخ بلادى كله ، مركزاً عنايتى فى أمر واحد : هو دراسة هذه الإنسانية ، وتحليل هذه الشخصية . لم تكن دراسة

ميسرة ، لأن أكثر من أرخ لمصر من أهلها ، ومن غير أهلها ، أعشى عيونهم التاج الأبيض والتاج الأحمر ، وأوراق الغار ، ولمعان السيوف ، وانفجار بارود المكاحل ، وشنك انتصارات السلاطين والملوك والقواد ، والاحتفالات الكبرى بافتتاح قناة أو بناء خزان .

فى تنقيبى عن الشخصية المصرية اكتشفت حقيقة أولية ، وهى ألا تعتمد على الثورات والاضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية . وإنك لواجد أمثلة لهذه الثورات والاضطرابات على طول التاريخ المصرى : فى العهد القديم ، وبعد استتباب الأمر للبطالسة ، وإبان الحكم الرومانى والبيزنطى والعربى والعثمانى والفرنسى والأرنؤدى والبريطانى . بيد أن الثورات والاضطرابات لا تصور وحدها يقظة الوطنية المصرية . لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية . وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم « العصيان المدنى » ، فكثيراً ما كانت كذلك فى الحقيقة كما سيجىء شرح ذلك .

ومصر لم تفن فى غزاتها ، بل إن غزاتها هم الذين يفنون فى مصر ، إن لم يكن بالطريقة التى ابتلعت بها الصحراء جيش قمبيز — كما قيل — فبوسيلة أفعل سحراً وأقوى أثراً . الغزاة يفنون فى مصر بالحياة : يتناسلون ويحكمون أجيالاً لينتهوا مجازاً إلى ما انتهى إليه جيش قمبيز فى الأسطورة . هم أيضاً يذوبون ، لا فى رمال الصحراء ، ولكن فى بوتقة الشخصية المصرية . وقد يفلح الملوك والحكام الأجانب حيناً فى الاحتفاظ بسماتهم الأجنبية ولغتهم ، ولكن ذلك يعد من قبيل الاستثناء الذى يثبت القاعدة ؛ والفناء الذى نقصد ، هو فناء الشعوب الغازية فى الشعب المصرى ؛ وهضم التربة المصرية لكل تلك الأجناس الغريبة ، التى قاومت ما استطاعت المقاومة ، ثم انتهت إلى ما انتهى إليه سابقوها .

ولا معدى لمن يعالج تاريخ مصر أن يدرس العقائد الدينية عن كثب ، حتى يفهم الشخصية المصرية . فقد كانت العقائد « قطب الرحى » فى كل الحركات القومية ، إلا فى حركة سنة ١٩١٩ .

ودراسة العقائد الدينية غير ميسرة دائماً ، لأن المؤرخين اختلفوا فى كل مرة يتحول المصريون من ديانة إلى أخرى . فهذا أميلينو ، العالم فى القبطيات ، يقول ،

ويؤيده لويبولت ، بأن وثنية المصريين انهارت عاجلاً أمام المسيحية ؛ على حين يحاول عالم البرديات الشاب جان ماسپرو أن يبين طول الوثنية فى مصر ، مستنداً إلى بقاء بعض المعابد الوثنية هنا وهناك . حتى القرن السادس الميلادى . وشبيه بهذا ما يقال عن تحول المصريين من المسيحية إلى الإسلام . وفى رأيى أن التحول فى الحالين استغرق قروناً قبل أن يستتب الأمر للديانتين التاليتين للوثنية فى مصر .

لنستعرض الآن السرد التاريخى الذى ورد فى الفصل السابق ؛ ماذا فعل الشعب المصرى بعد ضياع استقلاله وزوال عهد أسراته . أى منذ غزو الفرس والإسكندر ؟ وقبل ذلك يجب أن نذكر أن المصريين يتقبلون الغزاة ليخلصوهم من حكم غاشم . رضوا بالعرب لينقذوهم من حكم بيزنطة ، وفتحوا أذرعتهم للإسكندر ليزيح عنهم نير الفرس . والإسكندر جاء إلى مصر يحمل رسالة تحرير العالم ، على الأقل فى الظاهر ؛ دخل مصر كما دخلت جنود الثورة الفرنسية إيطاليا وألمانيا . ولو كان بونابرت مسلماً لرضى به المصريون مخلصاً لهم من جور المماليك . وكان بونابرت مدركاً لهذه الحقيقة ، معدًّا لها بعد مطالعة كتاب « فولنيه » . ولذلك راح يدجل بالآيات ، ويلبس العمامة والفراجة ، ويدعى الإسلام ، ويقول للمصريين بأنه حارب البابا وهزم « كوالراية » — أى فرسان — مالطة ، جند المسيح . ولم يجز هذا الدجل على المصريين .

دخل الإسكندر يحمل رسالة توحيد العالم فى إمبراطورية هلينستية ، ويدعى الإيمان بديانة المصريين . ويقدم القرابين لآلهتهم ، ويسافر إلى سيوة [واحة آمون] حيث استقبله كهنة المعبد الكبير ، وضحكوا على ذقنه بمسرحية دينية تركوا فيها الإسكندر يناجى كبير البانتيون المصرى وجهاً لوجه ، فيلقى إليه الصنم آمون [وهو صورة من زفس فى ذهن الإسكندر] برسالة إلهية يغيبها إسكندر فى صميم روحه ويكتب لأمه فى مقدونيا بأنه لن يبوح بالسر العظيم إلا لها بعد عودته إلى وطنه . ولما لم يعد ، اختفى سر الحديث الإلهى إلى الأبد .

وكشف هذا السر ليس من الصعوبة كما يبدو ، أولاً لأن الصنم آمون لم يتكلم ، فإذا كان حديث قد جرى بين الحجارة والإسكندر ، فعن طريق كاهن يتكلم من بطنه «فنتريلوك» : حيّا المقدونى وبيّاه : كما يحيى أى فرعون . والفراعين كلها

منحدرة من صلب الآلهة فى عرف المصريين . وما دام الإسكندر قد أصبح فرعون مصر بحق الفتح ، فليس بعيداً أن يكون الكاهن المدلس قد خاطبه على أنه ابن آمون ، ولم يجد هذا المتكلم من بطنه باسم آمون صعوبة فى إقناع الشاب المغرور بأصله الإلهى ؛ لأن الإسكندر كان يشك فعلاً فى بنوته لأبيه ؛ وكانت أمه أوليمبياس مصدر هذا الشك ، فهى التى نشأت غلامها على الاعتقاد بأنه ابن زفس كبير آلهة اليونانيين . ولم يكن عسيراً على الإسكندر ، ولا على أى إغريقى من القدماء . أن يصدق مثل تلك الخرافة ، لأن حياة زعيم الآلهة كانت سلسلة خيانات لزوجته الإلهة هيرا مع نساء البشر : يدخل عليهن فى شكل من الأشكال ، فهو ذكر بجع مرة ، وثور مرة أخرى ، ومطر من الدنانير مرة ثالثة . كان هذا الرب الفلاتى يتسلل إلى خدر معشوقاته من البشر ، أو يقابلهن فى الغاب وحول ماء الغدير ، متنكراً على طريقة الروايات البوليسية ؛ وقد بلغ به الخداع أن يتقمص شخصية الزوج فى بعض الأحيان . المهم أنه كان يلبس شكل عكروت ما . وغرور جوبتر — زفس — كان يدفعه إلى أن يعلن عن شخصيته ، فيما بعد ، تكريماً لمعشوقة رب الأرباب .

لم يكن كاهن سيوة المتكلم من بطنه باسم آمون يعنى أكثر من التحية التقليدية لفرعون مصر . . . المقدونى ، ولكن الإسكندر حمل التحية محمل الجد ، ورأى فيها توكيداً لما حدثته به الملكة أوليمبياس . إنه إذن الإبن البكر لجوبتر — آمون ، وسيعمل على مرضاة شعبه الأمين . فسياسته فى مصر ستكون سياسة المسالمة ، والحرص على معتقدات المصريين وعاداتهم .

وجاء أبناء لاجوس الأوائل بعده ينهجون نهجه ، ويتظاهرون بمجاراة طقوس المصريين واحترام تقاليدهم . ولكنهم ، فيما عدا ذلك ، يعيشون حياتهم الهلينية ، فى بلاد أنشئت خصيصاً لهم ولأبناء جلدتهم . وكانت عاصمتهم الإسكندرية مدينة هلينية فى كل شىء ، ليس بها من أثر للمصريين سوى طبقة عاملة من سكان « راكودة » محلة الصيادين التى أنشأ الإسكندر مدينته إلى جوارها .

ولكن فعلة كهنة آمون النكراء فى واحة سيوة ، وهى صورة من فعالهم فى معابدهم الكبرى ، كانت لها آثار بعيدة فى نفوس المصريين . ولقد درج الكهنة على

تملق البطالسة ، وإدخالهم فى البانتيون المصرى ، وتصويرهم على جدران المعابد فى بزة الفرعون يتلقى بركة الآلهة ، وربما كان بطليموس يتوج وفقاً للطقوس المصرية . وهو لا يرى بأساً من ذلك . فديانة الهلينيين كانت ديانة بجبوحة لا ترفض أن ينضم إلى مجمع آلهتها من يشاء من الآلهة الأغراب . هذا إلى أنهم تعرفوا على آلهة المصريين وأطلقوا عليها أسماء آلهتهم : فآمون هو زفس ، وهاتور هى أفروديت . وإيزيس هى ديميتر . وسبك . الإله التمساح ، من يكون غير خرونوس ؟ وإلههم هفيستوس ألا يكون فتاح أو رع ؟ وقد يكون هرمس هو توت ، أو أنه أنوبيس . ما كان أشبه البطالسة بأمير نافار البروتستانتى عندما انقلب كاثوليكيًّا غداة دخول باريس ليتوج ملكاً على فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، باسم هنرى الرابع . ومن مأثور قول هنرى دى نافار حين ذاك : « إن باريس لجديرة بقداس كاثوليكى » .

وسياسة البطالسة فى مصر كانت حذوك النعل بالنعل وسياسة الماريشال ليوتى ، بطل الاستعمار الفرنسى فى مراكش : احترام العقائد والطقوس والعادات لدى المغاربة عرباً وبربراً . والاحتفاظ لهم بمحلاتهم ومدنهم وديارهم ، مع إنشاء مدن حديثة يحيا فيها المستعمرون حياتهم الفرنسية فكريًّا واقتصاديًّا على حساب أهل البلاد . والحقيقة أن المستعمرين الأوربيين فى العصر الحديث لم يأتوا بجديد فى وسائلهم لاستعمار آسية وأفريقية ، إنهم فى كل ما قاموا به من « استعمار حضارى » حذوا حذو أساتذتهم المقدونيين والرومان .

وساعدت الإسكندرية ونوكراتيس فى الدلتا ، وبطليموسة [بطوليمايس] فى الصعيد ، وغيرها ، على إقامة خلايا يونانية تحيا حياتها الهلينية كاملة ، على حين تسير الحياة المصرية الصميمة سيرها التقليدى . وتستكمل المعابد أبنيتها ، بل ويقام غيرها ، وعلى النمط القديم .

واستمرت الحال حتى بعد الاحتلال الرومانى . فجاء الأمبراطرة إلى مصر يمالئون أهلها ، ويشاركونهم فى حفل تنصيب العجل أبيس ، وهم يتضاحكون إذا خلوا بعضهم إلى بعض . وما تزال بعض آثار هذا التندر فى بعض كتاباتهم وقصائد شعرائهم [الهجاء الساخر رقم ١٥ ليوفينال] وإذا كان الهلينيون قد شعروا بعظمة

الحضارة المصرية فكرموها ، فإن الرومان رجال عمليون لم يقدروا هذه الحضارة حق قدرها ، بل ولم يرعوا لمصر حرمة ، بعد ما استتب لهم الأمر فى وادى النيل .

فالهيلينيون والرومان كانوا يعيشون حياتهم على هامش الحياة المصرية ، والأصدق أن نقول بأن المصريين هم الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة الرسمية اليونانية أو الرومانية ؛ يعملون من أجل أسيادهم فى مصر وفى روما ؛ وقد انحدروا إلى قعر القفة ، وفوقهم اليهود ، فالهيلينيون وفوق هؤلاء وأولئك السادة الرومان . ثار المصريون غير مرة ولكن لم يحدث أن اتصلت أسباب الثورة وامتد لهيبها ؛ كانت اضطرابات محلية سرعان ما تسحقها القوة القاهرة .

ظاهر إذن أن المصريين استكانوا ورضوا بالذلة والخضوع . بل راح بعضهم يرطن باليونانية واللاتينية ليحيا حياة المحتل ويماحكه ، ويعيش على مرضاته . ولكن المتعمق فى دراسة الحياة المصرية القديمة يدرك توًّا كيف تمسك أغلب المصريين بقوميتهم ، وكيف كانت الضعة تمزق نفوسهم ، لأنهم انحدروا بعد الغزو الرومانى إلى مرتبة الولاية . ويلاحظ المؤرخ قوة الشعور بالقومية عند المصريين فى تاريخهم الطويل عندما لا يحدون عزاء عن الاحتلال الأجنبى فى أسرة مالكة ترعى على الأقل استقلالهم كدولة كبيرة . تملكهم هذا الإحساس بعد احتلال الهكسوس ؛ وبعد الغزو الرومانى والفتح الإسلامى والاعتداء العثمانى . وتتجلى صورة هذا الشعور فيما كتبه ابن إياس بعد موقعة مرج دابق والريدانية ، راثياً لحال بلاده ؛ إذ يقارنها بما كانت عليه أيام سلاطين المماليك ، مع أنهم كانوا أجانب عن مصر ، كما كان البطالسة . فشعور المصرى بأن له بطليموسه وإخشيده ، وخليفته الفاطمى ، أو سلطانه الأيوبى أو المملوكى ؛ يعزيه بعض العزاء ، لبقاء استقلاله مؤيداً ، بالرغم من هذه الأسر الحاكمة الأجنبية . ولا أحسب نظرة المصريين تنطوى على فلسفة سياسية خاصة ، إنما هو شعور بالفارق بين أسرة حاكمة — أجنبية أو من أهل البلاد ، تملك مصر وتعنى بأمورها ، كضيعتها الخاصة ولا شك ، فى تنظيم الرى والصرف ، والاستعداد للفيضان العالى ، وتوقى الفيضان المنخفض ، وتشجيع التجارة والصناعة والبناء والإنتاج الفنى والفكرى — وبين حاكم موظف يوفد من حاضرة بعيدة فى روما أو بيزنطة أو دمشق أو بغداد أو إستامبول ، وكل همه إرضاء الملك

البعيد ، إمبراطوراً أو خليفة أو سلطاناً ، بل جل عنايته أن يجمع لنفسه ثروة خاصة من بلاد غنية لا يتاح له الحكم فيها لأكثر من عام أو عامين . ونتيجة ذلك ، فى الغالب ، الفوضى وقصر النظر والرشوة والسرقة والجور والاستغلال فى أقبح صوره .

فالباحث عن القومية المصرية ، السارية كالنار فى الهشيم ، وعن شخصية المصريين وحفاظهم بكيانهم ، يتعين عليه أن يدرس عهود الحكام والولاة الموفدين من حواضر الإمبراطوريات الأجنبية ، أكثر من عنايته بعهود الأسر المالكة الأجنبية التى تستقل بشئون مصر .

لذلك نعنى فى هذا الفصل بمصر تحت حكم روما وبيزنطة ، وقد امتد نحو سبعة قرون ، منذ تغلب أكتافيانوس قيصر على كليوباترة حتى الفتح العربى . كانت مصر طوال هذه القرون ولاية قطعت أوصالها فى إصلاحات يوستنيانوس ، فأمست مجموعة من الدوقيات ، لكل دوقية منها حاكمها وقائدها ، ورئيس ماليتها ، وجيش احتلالها . وهذا التقطيع فى ذاته يفسر هزيمة الروم فى مصر أمام جيش عمرو بن العاص ، أى هزيمة نحو ثلاثين ألف رومانى ، أمام مجموعة من فرسان العرب ، أقل من نصف هذا العدد على أقصى تقدير .

والعهد الرومانى فى مصر يشبه فى أوله من ناحية معاملة الأهالى القرن اللاجيدى : محاولة استرضاء المصريين بالتظاهر باحترام ديانتهم وطقوسهم ، وتشجيع إنشاء المعابد الجديدة وإتمام قديمها ؛ ولو أن تركيز السلطة فى روما قضى على المحتل بمراقبة رؤساء الكهنة ، وفرض التزامات إدارية ومالية عليهم . بل انتهى الأمر إلى أن يشرف موظف رومانى كبير على كل الشئون الدينية فى مصر .

وتميد أرجاء الإمبراطورية بهجوم البرابرة على أطرافها ، من القوط الشرقيين والغربيين ، والفاندال والآفار . كما يتآكل بناؤها من الداخل تحت ضغط ظروف اقتصادية اجتماعية ، عرفت فى التاريخ باسم « تدهور الإمبراطورية الرومانية وانحلالها » .

وأجل حدث فى داخل هذه الإمبراطورية — وأمره مرتبط بمنطقة الشرق الأدنى على وجه الخصوص — هو ظهور المسيحية ، لا من حيث تهديدها بالقضاء على

ديانة الدولة الرومانية فحسب . ولكن لأن اعتناق بعض من رعايا الرومان لهذه الديانة قد صاحبته ، وربما كانت من حوافزه ، حركة تحرير كبيرة ، لشعوب الشرق الأوسط ، من ربقة الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا التحرير ممكناً ولا ميسوراً ، وقد جردت تلك الشعوب من أسلحتها ، واحتفظت روما فيها بجحافلها .

ولن نخرج عن النطاق المصرى . ونحن نحلل أثر المسيحية فى تحرير مصر من الرومان . وفى اعتقادنا أنه ليست المسيحية هى التى أيقظت الوطنية المصرية — فالوطنية المصرية لم تدركها سنة ولا نوم فى أى وقت من تاريخها الطويل ، ويحدثك المطالعون لأوراق البردى فى آخر عهود الوثنية المصرية عن كلمة الوطن «Patrios» ترد فى بعض المخطوطات — بل إن اعتناق المصريين للمسيحية هو فى ذاته مظهر من مظاهر مقاومة الاحتلال الرومانى . ولم يبشر مار مرقس بكلمة الإنجيل عبثاً ، عندما جاء إلى الإسكندرية فى القرن الأول للميلاد . فلا يقارب القرن الثالث نهايته حتى تكون مصر قد تحولت عن ديانتها القديمة التى مارستها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، إلى ديانة يسوع الناصرى ، وآمنت بأنه كلمة الآب المتجسدة .

وظاهرة انتشار المسيحية تكاد تكون واحدة فى كل مكان من الإمبراطورية . اعتنقها الفقراء والمحرومون والعبيد . لاعتقادهم أنها تحررهم من مساوئ هذا العالم . وهى تعدهم بملكوت السماء ملكاً خاصاً لهم يعوضهم عن العسف والجور والحرمان تحت النير الرومانى . وكان الشعب المصرى من أشد الشعوب بؤساً بحكم الرومان . فقد لاقى من هذا الحكم شيئاً أنكى من الاستغلال : عرف الذلة مضاعفة . فالمصرى يجىء بعد الرومانى واليونانى واليهودى ، وكل أجنبى فى بلاده . وكان لكل هؤلاء الحق فى الرعوية الرومانية . إلا المصرى . فلم يكن له من حقوق غير حق الذل ؛ أما واجباته ، فتبدأ وتنتهى عند إنتاج الغذاء والكساء . وزخرف الحياة . للغالبين .

ومن السهل فهم نجاح الدعوة المسيحية لدى هذا الشعب المغلوب على أمره . لولا قيام صعوبة واحدة : كيف لم يحرص المصرى على ديانته العتيقة . وهى آخر صلة له بمجده الغابر ؟ إلا أن نظرة واحدة إلى ما جرى على هذه الديانة ، بعد

الغزو الفارسى والمقدونى ، وبعد قرن من الحكم اللاجيدى والرومانى ، كفيلة بأن تفسر لنا كيف جاز للمصرى ، المتمسك بتاريخه وحضارته ، أن يتحول عن ديانته : لقد روّع المصرى على مدى سنى الاحتلال الأجنبى بمظاهر الزيف والفساد فى ديانته . ولا أحسب المصرى تقبل ببساطة حكاية البطليموس أو القيصر يغتصب عرش فرعون فى الدنيا والآخرة . وكان الكهنة — حفاظ الملة ورعاتها — يمالئون ويداهنون المحتل ؛ فعلوا ذلك مع الفرس ومع الإسكندر ومع البطالسة ومع الإمبراطور الرومانى . ورأى المصريون صورة أولئك الملوك الأغراب تنقش على جدران المعابد وصروحها فى الملابس الفرعونية ، تحت بصر الآلهة الألفيين وسمعهم ، إذا جاز لنا هذا التعبير . كما رأوا المعابد تقام بأسماء جديدة ، وتضاف أرباب أجنبية إلى البانتيون المصرى . وتكرس معابد لبرنيقة وغيرها من زوجات البطالسة وشقيقاتهم ، ولأمهات الأمبراطرة وزوجاتهم ، بل للشاب الجميل أنطنوس خليل الإمبراطور أدريانوس . لقد مسخت الديانة الرسمية وداخلها الغش والتدليس ، وحرّفت أسماء الآلهة ، وأضيفت إليها أسماء يونانية ركبت تركيباً مزجياً ، تختلط فيه رطانة اليونان باللغة المصرية القديمة ، فانهارت حقيقتها فى نفوس المصريين ، وإن احتفظوا زماناً بكل طقوسها وهيلها وهيلماتها ؛ وانصرف المصريون بكليتهم إلى العالم الآخر ، وإلى عقائدهم الشعبية ؛ وأصبح لطقوس الثالوث الأوزيريسى القدح المعلى لديهم ، فهى الطقوس التى تصور لهم النشور بعد الموت ؛ ولعلهم رأوا فى قصة إيزيس روح بلادهم تحاول أن تجمع أشلاء قوميتهم من تحت أقدام الغاصبين . ظل المصريون يمارسون طقوسهم فى الحياة والموت ، وقد تحولت عقائدهم إلى مجرد رموز لا معنى لها ، وانحدرت إلى ضروب من السحر ، ومجموعة من التعاويذ والتمائم . ظلوا يحنطون موتاهم ويدرجونهم فى لفائف الكتان ، ويزودونهم بنصوص كتاب الموتى ، مؤمنين بالنشور والحياة الباقية . وقد أحب المصرى الإلهة إيزيس ، وكان يتمثلها وهى تحمل طفلها الإلهى هوروس ، وإذا بالعقيدة المسيحية تحدثه عن مريم العذراء ، وعن الطفل يسوع ، وعن الآب ، وعن الصلب والقيامة والروح القدس . فما أيسر النقلة من أوزيريس وإيزيس وهوروس ، إلى الآب والابن ومريم البتول . ولم يكن الروح القدس بجديد على المصريين ، وقد عاشوا

آلاف السنين يؤمنون بالروح « با » فى صورة طائر ، وبالقرين « كا » . وهو الصورة الروحانية التى تتقمص المومياء أو التمثال الجنائزى ، فيقوم الميت من مرقده . يحيا حياته فى « آمنتى » . كما عاش على الأرض . وإذا كان الصليب القائم يرمز إلى آلام المسيح ، وإلى الحياة الأزلية ، فما أقرب هذا الرمز إلى الصليب ذى الحلقة ، « عنخ » ، رمز الحياة الأبدية .

ولا أحسب المصرى تابع منطقاً بعينه ، فما تحول الناس عن دياناتهم بدوافع منطقية . إنما أزعم أن الأسباب السالفة مجتمعة — وربما كان أهمها رغبته فى مناوأة حكامه الأجانب . والتخلص من ربقة كهنته — جعلت المصرى يتحول إلى عبادة جديدة ، مكانها نفسه المتدينة ، بعيدة كل البعد عن مظاهر العنف . لا تفرض عليه عبادة الإمبراطور ، سواء فى مظهره الرومانى . كما يريد له الاستراتيجوس ، أو فى مظهره الفرعونى ، كما يريد له الكاهن المصرى .

ولا أحسب المصريين انقلبوا مسيحيين بين عشية وضحاها . كما فعل ثلاثون ألفاً من المنبوذين الهنود فى أكتوبر ١٩٥٦ ، عندما تحولوا إلى الديانة البوذية . ولا شك أن الكهنة المصريين قاوموا ما وسعتهم المقاومة ، ولكنها مقاومة لم تكن تجدى لدى شعب فقد ثقته فى إخلاص كهنته وصدقهم ووطنيتهم . والغالب أن المقاومة تركزت حول بعض المعابد ، التى ظلت بمن يرتادها ويسكن حولها وينتفع بخيراتها شبه جزر من الديانة المصرية القديمة وسط بحر زاخر بالمسيحية .

فلنتصور مصر فى القرن الثانى للميلاد . وفيها أنواع وأشكال من العبادات المصرية القديمة وقد اختلط حابلها بنابل العقائد الهلينية ، والديانة اليونانية دون اختلاط . ثم الدين الرسمى للدولة الرومانية . فالعقيدة الموسوية ، ثم هذا الدين المسيحى الجديد ، الذى نرى آثاره فى نهاية القرن الثانى إنجيلا للمصريين ، وكنيسة بالإسكندرية ، يرأسها أسقف مصرى هو ديمتريوس [١٨٩ - ٢٣١ م] . وما نلبث حتى نسمع بأمر مدرسة اللاهوت [الديدسقلية] قامت بالإسكندرية فى مواجهة جامعة البطالسة المشهورة ، وفى مواجهة المدارس الإسرائيلية التى عاشت بفضل الفلسوف فيلون الإسكندرى ، وإلى جانب مدرسة الغنوسطيين أى العارفين . وكان بنطائينوس أول أستاذ نسمع باسمه شيخاً للديدسقلية ، وهو فيلسوف رواقى

تحول إلى المسيحية . وخلفه على إدارة المدرسة عظيم من عظماء الفكر المسيحى ، هو اكليمانضس ، الرجل الذى درس الشعر اليونانى ، وأحاط علماً بالفلسفة الإغريقية ، بقدر ما تفقه بالنصرانية ؛ وبذلك استطاع أن يحقق مواءمة جميلة بين الفكر اليونانى والعقيدة المسيحية .

وأقفل الإمبراطور سبتيميوس ساويرس المدرسة اللاهوتية عام ٢٠٢ م ، فى أول موجات الاضطهاد ؛ وعادت بمجرد أن خفت وطأته ؛ وسلم الأسقف ديمتريوس إدارتها إلى عظيم آخر من عظماء الفكر المسيحى : أوريجانوس الحكيم ، تلميذ إكليمانضس ، والمتفوق على أستاذه . لقد انتهى أوريجانوس « إلى اللاهوت المسيحى خلال المعارف اليونانية كافة » . وحقق نصوص الكتاب المقدس فيما بقى لنا باسم مخطوط « الهكسابلا » ، أى ذى الستة الأعمدة ، كل عمود منها يفيض بالشرح والتعليق والتفسير . ثم غضب ديمتريوس على أوريجانوس ، وقد خالجه الشك فى انحرافه ، فقدمه لمحكمة المجمع المقدس ، التى أدانته بتهمة الهرطقة ؛ فاضطر أن يرحل إلى قيصرية فلسطين ، حيث افتتح مدرسة ، ومن هناك انتقل إلى صور حيث توفى سنة ٢٥١ م .

وعاشت مدرسة اللاهوت حتى أوائل القرن الرابع ، أى حتى عهد الاضطهادات الكبرى ، المعروف باسم عصر الشهداء .

ولم تكن المسيحية محصورة بين جدران الإسكندرية ، بل الثابت أنها تقدمت بخطا واسعة خارج العاصمة ، منذ بداية القرن الثالث ، وبخاصة فى الطيبائيدة [الصعيد الأعلى] ، وفى الفيوم والبهنسا [الصعيد الأوسط] . حيث أنشئت الكنائس ، وأقيم على رأسها المطارنة يأتمرون بأمر كبيرهم بالإسكندرية ، أسوة بأهل المدن الخمس الغربية [وما زال البطريرك القبطى يحمل هذه الأسماء ضمن ألقابه الكنسية] .

وكلما أمعن أمبراطرة رومة فى الاضطهاد ، زاد المصريون التفافاً حول ديانتهم الجديدة . حدث هذا بعد اضطهادات ساويرس فى أول القرن الثالث ، وبعد اضطهادات دقيوس [سنة ٢٥٠ م] . وكان يخضع للاضطهادات من يخضع فيرتد ، ويستشهد من يستشهد . واختطف المصريون أسقفهم دنيس — وكان

يطلب اللحاق بالشهداء — ليخبئوه فى ليبيا ، حيث يواصل جهاده وقيادته للكنيسة المصرية .

واستمرت المقاومة بعد اضطهادات دقلديانوس (ديوقليسيانوس) (٣٠٣ م) وقاليريوس وماكسيمين دازا . وما أكثر من قضى من الشهداء والشهيدات ! وما أكثر من عذب أو أرسل إلى المعتقلات فى محاجر سينا والبحر الأحمر ! حتى صدر المرسوم الإمبراطورى فى ميلانو عام ٣١٣ م يعلن حرية العبادات فى الإمبراطورية الرومانية .

وها نحن أولاء نعرف أربعين على الأقل من المدن المصرية كان لكل منها أسقف . وكان بالإسكندرية وحدها مائة أسقف . وكثير من الكنائس ، وقدر عدد المسيحيين فى القرن الرابع بمليون من الأنفس .

وكان لانتشار المسيحية بين المصريين فى داخل البلاد أثر من أبعد الآثار فى تطور القومية المصرية . فالتبشير بالمسيحية بدأ فى المدن الكبرى ، وباللغة اليونانية . ولكن غالبية المصريين المتيمين خارج هذه المدن كانوا يجهلون تلك اللغة ، وإن اضطروا إليها فى معاملاتهم مع الحكومة . وأمام المحاكم . واقتضى انتشار المسيحية خارج المدن أن تجرى الطقوس وتلقى المواعظ بلغة البلاد ، بتلك اللغة المصرية التى يتخاطب بها المصريون منذ فجر التاريخ . كما فرض انتشار المسيحية وإقبال الناس على استيعاب نصوصها استعمال الحروف اليونانية لكتابة اللغة المصرية . وفى الحق لم تبدأ كتابة اللغة المصرية القديمة بالأحرف اليونانية بعد تحول المصريين إلى المسيحية . إلا أن هذا التحول كان من أفعل الأسباب فى استخدام المصريين للحروف اليونانية . فالكتابة الديموطيقية معقدة . وخالية من حروف الحركة . وقليل جداً من المصريين كانوا يعرفون الكتابة أو القراءة . أما اليونانية — وهى اللغة الرسمية منذ البطالسة . وتحت الحكم الرومانى كله ، وفى بداية الحكم العربى — فقد كانت مستعملة فى المكاتبات الرسمية وبعض المكاتبات الخاصة ، وكان من السهل على الأميين المصريين أن يجدوا كتبة عموميين يخطون اللغة اليونانية ، وأتصور أولئك الأميين كانوا يملون رسائلهم بلغتهم ، فيكتبها الكتاب العموميون بالأحرف اليونانية . مثلما تكتب التلغرافات العربية من الخارج بالحروف اللاتينية . وكذلك من يتلقون

تلك الرسائل ، كان أسهل عليهم أن يجدوا كتبة عموميين يطالعون لهم هذه الرسائل .

وقد شعر رجال الدين الجديد بالحاجة إلى نشر الكتب المقدسة والتعاليم الكنسية باللغة المصرية ؛ فكان من الأيسر أن تترجم إلى المصرية ، وتكتب بالحروف اليونانية ، وبذلك يسهل إيجاد قراء لها . كما يطمئن رجال الدين إلى حسن التلفظ بأسماء الأنبياء والرسل والحواريين والبلاد التى كانت مسرحاً لحوادث الإنجيل .

وكان هذا منشأ اللغة القبطية . وهى اللغة المصرية القديمة بعد أن عدت عليها عوادى أربعة آلاف سنة . وتطورت وتحورت بحكم اتصالات المصريين بالأجانب منذ الدولة الحديثة . وقد دخلتها ألفاظ يونانية عديدة ، من أسماء الآلات والأشياء . والاصطلاحات الرسمية . وأخيراً كل ما أدخلته الكنيسة من مصطلحات ، بحكم أن التبشير بالمسيحية بدأ فى مصر باللغة اليونانية . ولما كانت هناك مخارج حروف مصرية لا يوجد مقابل لها فى الأحرف اليونانية ، أضاف المصريون إلى ألف باء الإغريق سبعة أحرف من الكتابة الديموطيقية .

ومقاومة المصريين للاحتلال الأجنبى لم تقف عند حد الانضواء فى هذا الدين الجديد ، دين المغلوبين والمحرومين . بل قد اتخذت المقاومة صورة من أعجب الصور ، واتجاهاً كان عظيم الأثر فى تاريخ المسيحية . اتخذت المقاومة شكلا عرف فى العصر الحديث باسم « العصيان المدنى » و « المقاومة السلبية » . عندما بدأت حركة السياحة والرهبنة . هذه الحركة الروحية . أول ما نسمع بها فى القرن الثالث ، عندما خرج رجل صعيدى اسمه بولا أو بولس إلى الصحراء يتعبد وحيداً متوحداً . لم يكن التوحد ولا الانقطاع للعبادة بجديد على المصريين . فقد عرفت الديانة المصرية القديمة نظام الاعتكاف والنسك . والصحراء فى مصر ملاصقة للوادى الخصيب . إليها يخرج المعنىّ والهارب من العدالة أو من الظلم . وطالب الانفراد للتأمل والتهجد .

والحركات الثورية المصرية كانت تنشب وتعتصم بثلاث نواح : بلاد البشمور وهى البرارى فى شمال الدلتا وفوق مياه بحيراتها . وبين هيشها وحاموظا ؛ والحوف الشرقى ، وهو جزء من مديرية الشرقية حالا . ثم الطيبائيدة أى الصعيد الأعلى .

وهذا الصعيد الأعلى كان «الهنترلاند» والمعقل لصميم المصرية فى كل زمان ؛ ومنه خرج أمراء الصعيد . وعلى رأسهم أحمس . يطردون أول أمة فتحت مصر .

وهى الأمة المجهولة الأصل والنسب ، التى عرفها القدماء باسم الهكسوس . وترجموا هذا الاسم بملوك الرعاة .

ومن الصعيد خرج رواد الرهبنة الكبرى . من الصعيد خرج الراهب الأول أنبا بولا ، والراهب الأشهر القديس أنطونيوس . وفى الصعيد نشأ أنبا باخوم مؤسس الرهبنة الجماعية ، رهبنة الشركة [الكينوبيتية] . وأنبا شنودة . أصلب الرهبان عوداً وأشدهم نكيراً على الوثنية المصرية . وأول من يحمل أمام التاريخ تبعة هدم الآثار المصرية القديمة .

والتف حول حركة الرهبنة آلاف من المصريين . لم يكونوا كلهم من القديسين ؛ ولا حتى من الصلاّح . فقد اندس فى حشود الرهبان الورعين غير قليل من الهاربين من وجه القانون . عادلا أو ظالماً ، لسبب أو لآخر ؛ وكلمة الهروب من القانون بمعناها فى ذلك الزمان . تدل فى غالب الأمر على روح المقاومة السلبية فى الشعب المصرى ، عندما يطفح كيل الغاصب المحتل وأعوانه من جامعى الضرائب ورؤساء الجند الغادمين . وقد سبقت الإشارة إلى البطريرك دنيس ، الذى حزب أمره على الاستشهاد مع رعاياه . ورفضت الرعية أن يضحى بنفسه ، فأجبرته على الاختباء فى الصحراء مع رهبانه ، ليقود حركة العصيان . وينهض رمزاً لحياة الكنيسة ، بالرغم من اضطهادات الأمبراطرة الرومانيين .

فى هذا العهد الأول للمسيحية تأسس الدير الأبيض قرب سوهاج . وتجمع الرهبان فى وادى النطرون بشقه الجنوبى حيث دير السريان ودير أنبا بشوى حالا . وشقه الشمالى فى برية شيهات [الإسقيط] .

وذاع أمر هذه الحركة فى أرجاء المسيحية . فوفد على مصر المعجبون بهذا التجرد والقنوت . جاءوا على حس العجائب التى تتم على أيدى النساك . وقصص النهجد وتقتيل الجسد . وفدوا على مصر من سوريا والقسطنطينية وروما وبلاد الغال وإسبانيا ؛ ليروا بأعينهم ، ويتحدثوا بألسنتهم وفى رسائلهم ، عما يشهدون . وليتبركوا بأبطال « الرياضة الروحية » . وعادوا إلى بلاردهم ممتلئين إعجاباً بما رأوا . ووضعوا أسس الرهبنة الأوربية والأسيوية . بعد أن ترجموا إلى اللاتينية والسريانية دستور رهبنة الشركة الذى وضعه أنبا باخوم . وكان من كبار الرحالة الرومانيين

كاسيانوس وبلاديوس والعلامة هيرونيموس [القديس جيروم] والراهبة أوتيريا ، والسيدة النبيلة ميلانيا .

وكان بابا الكرازة المرقسية يعتبر هؤلاء الرهبان جيشه الروحى والمادى. فإذا سافر إلى المجامع العدة ، التى كانت تعقد غالباً فى آسيا الصغرى بأمر إمبراطور بيزنطة ، للتداول فى شأن فقه الديانة المسيحية وأركان عقيدتها ، حاط نفسه بجموع الرهبان الصاخبة ، يعاونهم نوع من « الصبوات » الدينيين يعرفون باسم « البارابولانى » ؛ ووظيفة أولئك الرهبان والصبوات تشبه ما عرفناه فى عصرنا باسم « المظاهرات » ، وجموع « الهتافة » . لم يكونوا يعنون ، ولا كانوا يفقهون شيئاً من المساجلات البيزنطية الطويلة . التى كانت تجرى فى تلك المجامع حول طبيعة المسيح ؛ إلهية خالصة هى ، أم إنسانية إلهية ، أم إنسانية فحسب؟. إنما هم سافروا بطانة لبابا الإسكندرية ، مؤيدين لزعيم الوطنية المصرية ، « بلدياتهم » كيرلس أو أثناسيوس ، أو من يكون ، لأن ما يقوله داخل المجمع هو الحق ، ولا يعرفون حقاً غير ما يقوله رئيسهم الروحى و « رمز أمانيهم » .

هؤلاء الرهبان والصبوات هم الذين أطلقهم كيرلس على يهود الإسكندرية . تلك الجالية الثرية المرفهة ، الوثيقة الصلة بالموظفين الرومان ، تعرف الطريق إلى اجتذاب عطفهم بشتى وسائل الإغراء من إطعام الفم وملء الجيوب ، على حساب أهل البلاد . فلم تغرب شمس النهار حتى أجلاهم الرهبان و « الصبوات » المصريون عن أحيائهم الكبرى إلى أرباض المدينة .

وهم هم الذين حقدوا على هيباسيا الجميلة العاقلة ، ابنة الفيلسوف ثيون ، وأستاذة الرياضيات والفلك بجامعة الإسكندرية الوثنية . فتربصوا بها ذات يوم ، وهى خارجة من قاعات الدرس ، وانتزعوها من فوق عربتها ، وسحبوها إلى صحن الكنيسة حيث جردوها من ثيابها ورجموها ثم قطعوها إرباً إرباً وأحرقوها .

إن المسيحية ، التى وجدت فى أمثال أكليمنضس وأوريجانوس رجالا متفقهين بالفلسفة الهلينية ، لم تعش طويلا فى مصر ، بسبب قوة اندفاع القومية المصرية ضد كل دخيل ، وضد كل ما يمثله هذا الدخيل ، فلسفة أو غير فلسفة .

لم تهدأ حفيظة المصريين على المحتلين بعد أن اعتنق أمبراطرة روما وبيزنطة

ديانة الناصرى ، ولم يطفىء لظى كرههم للإمبراطور الجالس على ضفاف القرن الذهبي تحوله إلى المسيحية . فما كان أسرعهم إلى الاستئثار بمذهب مسيحى يخالف مذهب الإمبراطور البيزنطى . فإذا اتجهت القسطنطينية إلى الهرطقة الأريوسية ، قامت مصر تناهض الأريوسية ، وحينما نادت مسيحية الروم بازدواج طبيعة المسيح ، أعلنت الكنيسة المصرية ، وتمسكت إلى يومنا هذا ، بعقيدة الطبيعة الواحدة [المونوفيزية] . فلا عجب أن عانى أقباط مصر من اضطهاد أهل ملتهم البيزنطيين ، أشد بكثير مما لاقوه على أيدى الوثنيين .

وليس بيسير على كاتب هذه السطور ، وقد نشأ مسلماً فى بيئة إسلامية صحيحة ، أن يفهم فيشرح أسس الخلاف الذى نشب فى الكنيسة إبان القرن الخامس ؛ وقد حاول فى الفصل السابق أن يوضح بشيء من التفصيل هذا الخلاف . وغاية ما وسعه فهمه هو اختلاف اللاهوتيين فى تعريف تجسد كلمة الآب فى صورة يسوع . لأنه وقد ظهر بين الناس بشراً سوياً ، أليس فى هذا الدليل على أن طبيعته من طبيعة البشر ؟

ولكن المسيحيين آمنوا بالطبيعة الإلهية لابن مريم ، بحسبان أنه كلمة الآب . فجاء آريوس ، أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الآب الذى لا شريك له . وبذلك أكد نوعاً من الوحدانية ، ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح كلية . وجاء أعداء آريوس ، والكنيسة المصرية على رأسهم ، فشلحوه ، وأنكروا أى أثر للطبيعة البشرية فى المسيح ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح ، وهى الطبيعة الإلهية . وإذا كان المصريون لم ينكروا وجود طبيعتين للمسيح قبل تجسد الكلمة ، فإنهم يقولون بزوال أو انزواء الطبيعة البشرية كلها بعد التجسد . انزوت كما تنزوى نقطة الماء فى المحيط ، فهى موجودة وغير موجودة ؛ أما كنيسة بيزنطة فتؤمن بأن للمسيح طبيعتين ، بشرية وإلهية .

كان هذا هو أس الخلاف والمساجلات والمشاحنات فى المجامع ، بين الكنيسة المصرية [المونوفيزية ، وتسمى عند الكتاب الأجانب باليعقوبية] وبين كنيسة بيزنطة [وتعرف بالملكية] . ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب ، يحمل معنى مناوأة الضعيف للقوى ،

بل هى الظهير الروحى للمقاومة الوطنية . فالمصريون يعارضون بيزنطة ، ويكرهون المحتل ، كما أنهم يعتزون بشخصيتهم وشخصية كرازتهم المرقسية ، ولا يريدون لكنيسة الإسكندرية أن تتراجع إلى الصف الثانى خلف بيزنطة ، الأحدث منها مسيحية . فإذا كانت القسطنطينية هى عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية فى العالم .

ولكن روما حيث يجلس على كرسى الأسقفية خليفة بطرس الرسول ، تطالب هى أيضاً بزعامة المسكونة ، وتفضل فى أسوأ الاحتمالات أن تبقى الزعامة للإسكندرية ، على أن تفوز بها عاصمة الإمبراطورية الشرقية ، لمجرد أنها مقر الإمبراطور البيزنطى . ولقد استفاد بطاركة الإسكندرية من هذا التزاحم على الزعامة بين روما والقسطنطينية ؛ ولعله أطال عمر الزعامة المصرية لكنائس العالم المسيحى فى ذلك الوقت . كان البطريرك المصرى يدخل المجامع الإكليروسية ، وحوله رهبانه وصبواته ، يملون إرادتهم على إكليروس بيزنطة . ولقد بلغ من جبروت الأنبا كيرلس الأول ، فى مجمع إفسوس عام ٤٣١ م ، أن استطاع ، بحشد رهبانه وصبواته وهتافاتهم ، أن ينزع من المجمع قرار حرم نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية ، وكان بابا روما يلعب من وراء الستار لعبته البارعة لضعضعة كرسى القسطنطينية .

ولكن بمجرد أن توطد التحالف بين الإمبراطور البيزنطى وبابا روما ، شعر البطريرك ديوسقوروس ، خليفة كيرلس ، بالكرسى البطريركى يميد به ، وذهب إلى مجمع خلقدونيا عام ٤٥١ م ، ورعاياه يصدونه عن السفر ، ويحرضونه على عصيان أمر الإمبراطور بالتوجه إلى خلقدونيا . وهناك لم يستطع الرهبان و « الصبوات » شيئاً حيال القوة القاهرة . وحكم المجمع بحرم ديوسقوروس ، وإبعاده عن كرسى الكرازة المرقسية ، كما قرر بالإجماع « أن المسيح والآب من طبيعة واحدة فى ألوهيته ، وأن المسيح والبشر من طبيعة واحدة فى إنسانيته » . بهذا قضى مجمع خلقدونيا المشهور وانفصمت العرا نهائياً بين الكنائس الأوربية ، شرقية وغربية ، وبين الكنيسة المصرية .

يقول كرستوفر دوسون فى كتابه « أصول أوروبا » :

« إن الأزمة الدينية الكبرى فى القرن الخامس ترتد فى أصولها إلى قلب العالم

الهليني ذاته بمدينة الإسكندرية . لأن تقاليد الثقافة الشرقية العريقة عادت إلى الحياة فى صورة من صور المسيحية . لقد احتفظ الشعب المصرى تحت حكم البطالسة والرومان بديانته وحضارته . وبينما كانت الإسكندرية حاضرة التمدين الهيليني اللامعة . اتصلت أسباب الحياة المصرية القديمة على ضفاف النيل دون تغيير . وبذلك جرى تيار الحضارتين جنباً إلى جنب ؛ دون أن تختلط مياههما ؛ لأن مصر الألفية احتفظت بطقوسها الدينية . ثم جاءت المسيحية وغيرت كل هذا . فانهارت الحواجز الدينية التى تحيط بالشعب المصرى ، حتى وجد نفسه مختلطاً بشعوب الإمبراطورية الرومانية . ومع ذلك فإن قوة القومية المصرية لم تضعف ، والحضارة اليونانية البيزنطية لم تجد سبيلا إليها ، بل كان العكس هو الصحيح . إذ تدهورت أهمية العنصر اليونانى دون توقف . وتبوأت اللغة القبطية — أى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية — مكانتها بدل اليونانية . كما احتلت الكنيسة مكان الديانة الرسمية القديمة فى تمثيلها للقومية المصرية . وبينما قام على رأس الطبقات الحاكمة أسياد أجانب تبوءوا عرش الفرعون . فإن التحول إلى المسيحية تبعه تزعم البطريرك المصرى للكنيسة المصرية . وكما كانت مصر فى أيام تضعضعها تلقى بمقاليد زعامتها لكبير كهنة آمون — رع فى طيبة ، فإن جميع قوى الوطنية المصرية التفت الآن حول البطريرك ، وهو « السيد الأقدس . البابا والبطريرك لمدينة الإسكندرية . وبلاد لوبيا ، والمدن الخمس الغربية . وإثيوبيا . وسائر أرض مصر . أبو الآباء . أسقف الأساقفة . الحوارى الثالث عشر ، قاضى العالم » . وكان سلطانه على الكنيسة المصرية سلطاناً مطلقاً ؛ أقوى بكثير من سلطان البابا على الكنيسة الغربية . . . . ولم تكن تقف إزاءه سوى قوة واحدة : هى قوة الرهبان ؛ الزعماء الطبيعيين للشعب ، إلى درجة تتفوق على زعامة الأساقفة .

« والرهبنة المصرية نتاج أصيل للمسيحية المصرية . خلاصة مصفاة لفضائل مبدعيها ورذائلهم ؛ فهى تجمع إلى جانب حكمة أنبا مقار أو أنبا باخوم وروحانيتهما . تعصب الرهبان والصبوات الذين قتلوا هيباسيا ، وأثاروا الاضطرابات الدامية فى شوارع الإسكندرية . وكان هذا التعصب قوة تساند البطريرك ؛ الذى وجد فى الرهبان جيشاً عنيفاً جسوراً . فإذا ذهب البطريرك إلى مجمع مسكونى .

اصطحب الرهبان والصبوات « البارابولانى » ، الذين كانوا يؤلفون حرساً يحميه ، ويرهب أعضاء المجمع بهتافاته واعتداءاته . وقد بلغ البطريرك المصرى من القوة والسؤدد ما جعله يطمع فى أن يكون الحاكم الدينى المطاع للإمبراطورية الرومانية . ووقف البطريرك أثناسيوس وحده ضد الإمبراطور قسطنطيوس الثانى وأساقفته كلهم ؛ ولم يك خلفاؤه مستعدين لقبول زعامة تلك البطريركية الحديثة العهد ، القائمة فى القسطنطينية ؛ وانتصرت الإسكندرية مرتين بزعامة بطاركها العظام : تاوفيلوس ، وكيرلس ، عندما أذلت كرسى القسطنطينية ، وكرسى أنطاكية ؛ وفى المرة الثالثة ، بعد الحكم على فلافيانوس فى إفسوس [سنة ٤٤٩] ، حاقت بها الهزيمة عندما اضطرت إلى قطع علاقاتها بروما والغرب . وكانت روما والغرب يظاهرانها حتى ذلك الحين .

« وفى سنة ٤٥١ م بمدينة خلقدونيا ، تكاتفت قوى روما والقسطنطينية ، برياسة البابا لاون (ليون) والإمبراطور مركيانوس ، لسحق البطريركية المصرية الكبرى التى هيمنت على أقدار الكنيسة الشرقية طوال هذه المدة .

« ومجمع خلقدونيا ، من دون كل المجامع ، يبرز بأهميته الدرامية ، كما يتميز بنتائجه . وقد اجتمعت فى كنيسة آيايوفيا بخلقدونيا جميع القوى التى تتنازع العالم المسيحى : قوة الكنيسة المصرية فى ناحية ، وقوة الكنيسة الشرقية فى ناحية أخرى . وكان أصحاب الفريقين المتنازعين يحتلون جناحى الكنيسة ، كل إلى ناحية من صحنها ، وهم يتبادلون السباب . على حين جلس كبراء الإمبراطورية أمام الحاجز الذى يفصل الهيكل عن صحن الكنيسة ، وإلى جوارهم رسل البابا يتحكمون فى الجموع الحاشدة الصاخبة ، وهم جامدون ، يوجهون المناقشة فى إصرار نحو اتخاذ قرار نهائى يتفق مع إرادة البابا وإرادة الإمبراطور .

« وهذا القرار لم يتخذ إلا بعد أخذ ورد غاية فى العنف ، وبعد أن طالب الرسل البابويون بجوازات سفرهم ، استعداداً لعقد مجمع جديد فى الغرب . وسلم الإمبراطور لبلاغهم النهائى ، فوافقت الأغلبية على التعريف الغربى لطبيعة المسيح المزدوجة مجتمعة فى جسد واحد .

« وهذا الحل — الذى فرضته إرادة بابا من عظماء البابوات ، وإمبراطور قوى

الشكيمة — لم يكن ليضع نهاية لعناصر الخلف والشقاق بين شعوب الإمبراطورية ، فقد أكد الأساقفة المصريون أنهم لا يجرءون على العودة إلى بلادهم وهم يحملون خبر عزل البطريرك ، خشية أن يمزقهم قومهم شر ممزق . ولم يكن تخوفهم مجرد تخيلات ، فقد هاج الشعب الإسكندرى وماج فى وجه الحامية الإمبراطورية ، وأعمل فيها ذبحاً وتقتيلا ؛ ولكن الحكومة الإمبراطورية نجحت فى فرض بطريرك من المذهب الملكى على كرسى الإسكندرية .

« وما إن توفى الإمبراطور ماركيانوس القوى الشكيمة ، حتى هجمت جمهرة الشعب الاسكندرى على البطريرك الخلقدونى [الملكى] ، ومزقته شر ممزق فى صحن كنيسته ، وفى يوم الجمعة الحزينة .

« وهكذا ظلت اليعقوبية ، أى عقيدة الطبيعة الواحدة ، هى المذهب القومى ، وغدت قوة فى يد البطريرك المصرى » .

* * *

هذه هى قصة الشعب المصرى فى حقبة من أعقد أحقاب تاريخه . فالمقاومة المصرية لحكم بيزنطة يشتد عضدها ، والتهرب من دفع الضرائب يصبح القاعدة . وذلك بأن يهجر الناس أرضهم ويدخلوا الأديرة ، أو أن يحتموا بكبار الملاك القادرين على التخلص من الضرائب . أما الكنيسة فتتمتع بإعفاءات عدة .

وحاول الإمبراطور هرقل ، فى القرن السابع ، مصالحة الكنيسة المصرية ؛ ولم يكن له فى هذه المصالحة فضل ، إنما اضطر إلى المسالمة بعد أن غزا كسرى ولايات الإمبراطورية فى الشرق الأوسط ، فدخل بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، ومصر سنة ٦١٦ م . وبموت كسرى . عادت مصر إلى حظيرة بيزنطة ، ورأى الإمبراطور من الحكمة استرضاء المصريين ، فابتدع مذهباً لا ينفى ازدواج طبيعة المسيح ، ولكنه يقول « بوحدة مشيئته » ؛ وأوفد إلى مصر البطريرك قوروش يبشر بالمذهب الجديد ، ويضم إلى سلطته الروحية السلطة الزمنية .

وهنا يقول ساويرس بن المقفع . المؤرخ القبطى : « أوفد قوروش إلى مصر بطريركاً ، وحاكماً عاماً » .

وقبل أن تطأ أقدام المقوقس أرض مصر ، اجتمع البطريرك القبطى بنيامين ،

بالإكليروس والشعب . ونظم أمور الكنيسة الوطنية ، وأوحى إلى الجميع « بالمقاومة حتى الموت فى سبيل العقيدة » . ثم نزح إلى الصحراء يحتمى بها هو وأساقفته .

وفشل المقوقس فى فرض مذهب « المشيئة الواحدة » على الكنيسة المصرية . فاستعمل وسائل العنف والاضطهاد فى العشر السنوات الباقية للحكم البيزنطى فى مصر ، وكان له المصريون أقذع السباب : فهو ابن الشيطان ، والمسيخ الدجال ، وواصل بنيامين قيادة حركة المقاومة من منفاه الصحراوى .

وكانت تلك اللحظة مرصودة فى لوح التاريخ للفتح الإسلامى ، بقيادة عمرو ابن العاص . فليس عجيباً ولا مستنكراً ، كما يدعى بعض المؤرخين ، أن يساعد المصريون الفاتح العربى . وقد جاء ينقذهم من ذلك الاحتلال اليونانى الرومانى الجاثم على صدورهم منذ سبعة قرون ؛ ولم يقدم المصريون المعونة لفرسان العرب فحسب . بل حارب بعضهم إلى جانبهم . وكان عمرو قائد رجال ، اجتمعت له صفات الجندى العظيم ، والسياسى المحنك . فأحسن استقبال البطريرك بنيامين ، وهو عائد من منفاه . ولدينا شهادة مصرى من عظماء الإكليروس القبطى فى ذلك الزمان . أو بعده بقليل ، وهو يوحنا النقيوسى ، قال :

« احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه ، فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، وإعادة إنشاء الكنيسة الوطنية ، وأديرة النطرون . ودير أنبا مقار . وجاء الرهبان أفواجاً يؤكدون إخلاصهم للقائد العربى . »

ملكات ثلاث

أم خليل ـ بنت الزمار ـ الصعيدية

كأن تاريخ مصر لا تنقصه الغرائب والأعاجيب! وليس العجب أن تحكم مصر نساء ، وقد حدث هذا فى أكثر من مكان خارج مصر . ولكن العجب أن تمتاز ثلاث ملكات فى تاريخ مصر : تشهر إحداهن فى التاريخ العام ، وتشهر الثانية فى تاريخ الفراعنة ، وتشهر الثالثة فى تاريخ مصر الإسلامية : كليوباترة ، وحتشبسوت ، وشجرة الدر .

فلنبدأ مصعدين فى التاريخ بالجهة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى مصرية بحياتها وسيرتها ، ولكنها أصلا مملوكة تركية ـ أو أرمنية ـ أهداها الخليفة المستعصم بالله ، آخر بنى العباس فى بغداد ، إلى الملك الصالح أيوب .

ثم نثنى بكليوباترة : مصرية المولد والسيرة ، ولكنها مقدونية الأصل من ناحية الأب على الأقل ، لأننا لا نعرف شيئاً عن أصل أمها الراقصة ، عشيقة بطليموس فيلوباتور ـ فيلوميتور ، المكنى بالزمار .

ونختم بالمصرية الصعيدية ، بنت تحوتمس الأول ، أو بنت الإله آمون ، الملكة حتشبسوت .

* * *

أم خليل

كانت أم خليل امرأة ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، حتى أنها كانت تدبر الملك فى حياة أستاذها الصالح أيوب . وكانت إلى جانب زوجها قبيل المعركة التى كسبها المماليك الصالحية من جيوش فرسان الصليب ، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

ومن أعجب أدوارها أن يموت الملك الصالح أيوب على فراشه ، فى الوقت الذى تحركت فيه جنود الرى دى فرانس من دمياط إلى شرمساح ، عند مخرج الفرع التنيسى للنيل من فرع دمياط ، وكان هذا الفرع التنيسى يعرف باسم ترعة أشموم [وهو الآن البحر الصغير] . فكان النيل إلى يمين الصليبيين ، وأمامهم بحر أشموم هذا ، ويواجههم فى الضفة المقابلة مماليك الصالح الأشاوسة ، يسندون ظهورهم إلى المنصورة الواقعة على بعد سبعة كيلو مترات إلى الجنوب من مخرج بحر أشموم ، وإلى أسطولهم النيلى . فكان على سان لويس أن يعبر بحر أشموم ، تحت سمع الجيش المصرى وبصره — وهو ما لا يفكر به قائد — لولا أن خائناً اسمه سلامون كشف للصليبيين عن معبرة بالقدم [مخاضة] إلى الجنوب من موقع المصريين . فتقدم الملك الصليبى إلى هناك ، وأمر رجاله بالعبور ، وعلى رأسهم فرسان الداوية [التامبليه ، أى فرسان المعبد] .

وما إن بلغ روبير ، كونت أرتوا ، شقيق الملك ، الضفة الجنوبية لبحر أشموم ، حتى بادر بمفاجأة المعسكر المصرى فاخترقه ، ونفذ إلى المنصورة ، وتعداها حتى بلغ قصر الملك الصالح على الضفة الشرقية للنيل . وقتل فى المعركة أتابك العسكر فخر الدين ، وأشبع الصليبيون العسكر المصرى قتلا ، وشرعوا يهجمون على قصر السلطان الأيوبى . ولكن المماليك الصالحية ، وعددهم عشرة آلاف مقاتل من خيرة المدربين على فنون الحرب ، جمعوا حشودهم قرب القصر ، وقادهم بيبرس البندقدارى فى الهجوم على فرسان الصليب ، فارتد هؤلاء إلى المنصورة ، ليجدوا أنفسهم محشورين فى حوارى البلدة ، يطاردهم فرسان البندقدارى من وراء ، ويضرب عليهم رماة السهم من الأسطح والطيقان ، فتذهب ريحهم ، ويموت قائدهم كونت أرتوا ، وثلاثمائة من رجاله . ولم ينج فى الموقعة من فرسان الداوية سوى خمسة ، وفى الفرسان الصليبيون . حملة القوس . ويقدر من أبيد من الصليبيين فى ذلك اليوم بأكثر من خمسمائة وألف مقاتل . وتقهقرت فلول الجيش الصليبى إلى بحر أشموم من حيث بدءوا . وهناك التقوا بملكهم لويس ، وكان قد عبر البحر إلى الضفة الجنوبية ، وحارب لويس التاسع فى بسالة ، وحاول عسكره العودة إلى معسكرهم بالضفة الشمالية لبحر أشموم . فغرق منهم جم غفير ، وملأوا البحر بخيلهم ورجلهم

ما بين غريق وقتيل وجريح . وصمد لويس على رأس الكبرى ، فى حرب الساقة ، والرجال يتناقصون حوله . حتى انتهى أمره بالتسليم مع من بقى من أمرائه وفرسانه .

حدث كل هذا والملك الصالح قد وافاه أجله منذ تقدم فرسان الصليب من دمياط . ولو علم المماليك بموته لانفرط عقدهم وتبلبل أمرهم . ولكن شجرة الدر أخفت خبر موته عن الجميع ، واستدعت الأمير فخر الدين أتابك العسكر — وهو الذى قاد المعركة وقتل فيها بعد ذلك بقليل — والطواشى جمال الدين محسن من خاصكية السلطان ، واتفقت معهما على إخفاء موت السلطان ، وقيامها بشئون الملك حتى يحضر طورانشاه ، ابن زوجها ، من قلعة كيفا ، على الضفة الغربية لنهر الدجلة ، قرب ديار بكر . فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر مذيلة بتوقيع الملك الصالح أيوب ، يزوره على ما يقال سهيل ، خادم السلطان المتوفى .

بهذا تتقدم إلينا شجرة الدر على صفحات التاريخ المصرى .

ولا يعرف لهذه المملوكة الفطنة أصل . قيل إنها تركية وقيل بل أرمنية . تلقاها الصالح أيوب هدية من الخليفة العباسى ، ثم أحبها فتزوجها بسنة الله ورسوله . وكانت خير عون له فى أمور الدولة . بدليل وجودها إلى جانبه أثناء الحملة التى قامت لدفع الصليبيين عن الديار المصرية ، ثم رباطة جأشها بعد موته . وتحايلها فى إخفاء الحادث الجلل . فكان أكل السلطان المتوفى يدخل إليه فى « فراش مرضه » ، على أن به وعكة ، وتقوم هى مقامه فى استقبال رجال الدولة من خلف ستار . بهذا كسبت هى موقعة المنصورة ، أو موقعة أشموم . وأبقت على كيان الدولة الأيوبية حتى عاد ابن زوجها طورانشاه من بلاد الرافدين . فسلمته مقاليد الأمور ، وأشرف على شئون الحرب بنفسه ، ودبر خطة نقل قطع المراكب مفككة على ظهور الإبل إلى شاطئ النيل ، شمالى الأسطول الفرنسى الراسى بدمياط . وركبت قطع السفن هناك ، وكبس رجالها على الأسطول الصليبى ، فأسروا منه ثلاثين سفينة . وبذلك قطعت خطوط تموين لويس التاسع . فلا هو فى قوة يقتحم بها أعداءه ليبلغ القاهرة ، ولا هو ممون من قواعده . وأخذ فى التقهقر شمالا ، كما ذكرنا ، ومماليك الصالح تتعقبه ، وتدير التقتيل فى رجاله المنهزمين ، حتى بلغوا فارسكور . حيث أبيد جيش الصليب ما بين مقتول ومأسور ، وكان الملك على

رأس الأسرى ؛ ولم ينقذه ، وأمراءه ، من القتل إلا عقل شجرة الدر وحسن تدبيرها ، عندما قبلت افتداءهم بمال له صورة .

ولم يفلح طورانشاه ، برغم انتصاره ، فى اجتذاب مماليك الصالح إليه ، لأنه عاد من « كيفا » محفوفاً بمماليكه وخاصكيته ، يخلفهم محل مماليك أبيه فى مناصب الدولة ، ويضمر للمماليك الصالحية ما يضمر من الغدر ، ثم هو يضيق على شجرة الدر ويتوعدها لتقر له بمال أبيه ، وهى ترفض ، حتى عيل صبرها وصبر مماليك زوجها ، فأرسلت إليهم من يقول : « اقتلوا طورانشاه ، وعلى رضاكم » ؛ فتولى أمراؤهم قتل آخر الأيوبيين — فيما عدا خرافة أخيرة — بزعامة بيبرس وفيهم الأمراء قلاون الصالحى وفارس الدين أقطاى الجمدار وعز الدين إيبك التركمانى وغيرهم .

وبمقتله يبدأ حكم المماليك البحرية ، وكان أول سلاطينهم ... ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل (عام ١٢٥٠ م) .

ويقول هنا الأستاذ ستانلى لين — بول ، صديق المصريين ، ومؤرخ عصورهم الوسطى ، ودارس الفن الإسلامى المصرى — وهو لا يتخلى عن نعرته الاستعمارية — « وتكاد تكون شجرة الدر الملكة الوحيدة التى تولت الحكم على بلاد المسلمين قبل إمبراطورة الهند الحالية » . . . أى الملكة فكتوريا !

والحق أن اختيار المماليك لزميلتهم المملوكة سلطاناً عليهم أمر يدعو إلى أشد العجب ، لأن السلطان ، إن لم يكن قاضى القضاة ، فهو الرئيس الأعلى للجيش ، والمرأة لا تولى قيادة الجيش . ولست أصدق أن إخلاص المماليك الصالحية لأستاذهم الملك الصالح أيوب هو الذى دفعهم إلى الحرص على تولية زوجه ، وأم ولده خليل ، فإن من يعرف المماليك فى مستقبل حياتهم بمصر ، ويدرس أحوالهم ، لا يمكن أن يقبل قصة هذا الإخلاص ؛ إنما هى الحكاية القديمة التى عرفناها فى الحرس البريتورى بروما ، وفى حرس الخليفة العباسى من الديلم ، وفى حرس السلطان العثمانى المعروفين بالإنكشارية ؛ وهى أيضاً حكاية الثورات العسكرية فى جمهوريات أمريكا اللاتينية ، عندما يعتمد الحكام أولا وآخراً على الجند ، دون الشعب ، وقديماً قيل « من يبذر الريح ، يحصد العاصفة » ، والاعتماد الكلى على الجند ينتهى

بهؤلاء إلى إدراك قوتهم . فيوجهونها حسب رغباتهم وأهوائهم . ويولون ويعزلون .

لعل المملوك الوحيد الذى أخلص للسلطان المتوفى ولأسرته هو زوجه . وأم ولده خليل . فقد حرصت على استدعاء ابن زوجها من قلعة كيفا ليتولى ملك أبيه . ولم يرضخ المماليك لهذا إلا محافظة على تماسك الدولة الأيوبية ، وخشيتهم من انفضاض سورية عنهم . ورفض الخليفة العباسى الاعتراف بسلطنتهم . ولما لم يحسن طورانشاه معاملتهم — ويمكنك أن تترجم ذلك بأنه لم يخضع لتحكمهم — قتلوه . وحافظوا بعد ذلك على خرافة امتداد الدولة الأيوبية ، أولا بتولية شجرة الدر . ثم بتولية طفل أيوبى إلى جانب عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية بعد شجرة الدر . فالملك لهم فى كل الأحوال . ولقد أيدت الحوادث ذلك بتزويجهم شجرة الدر من زميل لهم ، وبإقامة طفل أيوبى لإرضاء سورية وإرضاء خليفة بغداد . وتأيد ذلك بحرص شجرة الدر إبان سلطنتها القصيرة على الانتساب إلى الملك الصالح ، وتوكيدها هذه الحقيقة فى الأوراق الرسمية ، وهى توقع عليها بكلمة « والدة خليل » ، مع أن خليلا هذا مات طفلا وشبع موتاً . وسكّت النقود بألقابها الملكية ، هكذا : المستعصمية [أى مملوكة الخليفة المستعصم بالله قبل أن يهبها للصالح] الصالحية [أى مملوكة الصالح أيوب] ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور [أى ابنها الطفل المتوفى] خليل أمير المؤمنين [وخليل هنا تلاعب باللفظ فيما بين اسم علم واسم نكرة بمعنى صديق . تبعاً لقراءة لين — بول] . والغالب أن الكلمة هى أم المؤمنين ، لا أمير المؤمنين .

فكأن المماليك يحققون بتولية شجرة الدر غرضين : الاستيلاء على السيادة الفعلية ، والتمويه فى الخارج . وعلى السوريين بخاصة . بأن الحكم باق فى بيت أيوب .

تولت شجرة الدر السلطنة ، وأخذت تفرق الوظائف السنية والإقطاعات على أمراء المماليك الصالحية ، وأغدقت الرزق والأموال والخيول على صغار المماليك ، وأرضت هؤلاء وأولئك بكل ما يمكن .

وكان زملاؤها يقبلون لها الأرض من وراء حجاب ، وقد اتخذت من الأمير عز الدين إيبك ساعداً لها فى تدبير أمور المملكة ، ولكنه كان لا يتصرف فى الأمور إلا بعد مشورتها .

وكانت تكتب على المراسيم فى العلامة بخطها « والدة خليل » ، ويخطب يوم الجمعة باسمها على منابر مصر فيقول الخطباء : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

ولم يكن كل هذا التحايل ليجدى نفعاً ؛ فالمسلمون خارج مصر — بل ونظن داخل مصر أيضاً — يكرهون أن تتولى أمورهم امرأة . فما أسرع ما خرج أهل سـ ريا عن طاعتها ، وبايعوا الناصر يوسف الأيوبى ، صاحب حلب .

وكان من أشد الناس استنكاراً فى خارج مصر هو أمير المؤمنين ، الخليفة العباسى المستنصر بالله أبو جعفر ، فأرسل إلى مصر من يقول للأمراء : « اعلموا ، إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمورهم امرأة ؟ » .

وهنا ينقلب ابن إياس الحنفى من النقيض إلى النقيض ، وينسى كل ما قاله ، وسيقوله ، مدحاً فى أم خليل ، فلا يكتفى بذكر إنكار الخليفة ذلك على المماليك غاية الإنكار ، وتهديده وأمره لهم بالرجوع عن ذلك ، بل هو يتغنى ببيتين سخيفين من الشعر :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لهن رأياً سنيا
ولأجل الكمال لم يجعـ ـل الله تعالى من النساء نبيا

ثم يعود بعد ذلك إلى القول بأن شجرة الدر « كانت تدبر أمور المملكة فى حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة » . ولنا أن نفهم من موقفه ما نفهم ، وفى رأيى أن « القافية حكمت » ، وعفا الله عن ابن إياس الحنفى ، فقد كان يحفظ قدراً من الشعر السمج الدارج ، يدسه على كتابه القيم ، وكان من حسن طالع الكتاب أن رسمال ابن إياس من هذا الشعر ، ومن غيره ، كان ضئيلا .

أمام تهديد الخليفة — وربما كانت إشارته إلى نقص الرجال أشد نكيراً على

المماليك من التهديد — اضطرت أم خليل إلى أن تخلع نفسها من السلطنة . لا برضاها من غير كره لها ، كما يقول المتمثل بالشعر السخيف . فإن القليل الذى نعرفه عن أم خليل . يبعث على الظن بأن قبول خلع نفسها من السلطنة . كان أصعب عليها من خلع روحها ؛ ثم تزوجت بالتركمانى الذى تولى السلطنة .

وكان هذا — على قول ابن إياس — ابتداء دولة الأتراك بمصر — والأتراك هنا هم المماليك ؛ أما الأتراك بالمعنى الحديث فكان يسميهم العثمانية أو الروم — فما دامت تولية أم خليل لم تتأيد بمرسوم خليفتى ، فلا بقاء لها فى قائمة سلاطين مصر . هذا إلى أنه يمكن اعتبارها آخر الأيوبيين . كما أنك ستبحث عبثاً عن اسم حتشبسوت فى قوائم ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وذلك لأسباب أخرى . وبرغم أن الزعامة الدينية فى آخر الألف الثانى قبل الميلاد قد أقرت فرعنة حتشبسوت ، بل أقرت أكثر من ذلك كما سيجىء .

ظلت شجرة الدر صاحبة الكلمة العليا على زوجها ، فهى التى تدبر أمور المال ، وتحكم على عقدة الكيس . ويدير عز الدين التركمانى أمور العسكر ليرد أطماع الأيوبيين عن مصر ، وليهدئ من ثائرة العرب القاطنين على أطراف وادى النيل ، وقد اجتمعوا على المدعو حصن الدين بن ثعلب ، بزعم أنه من ذرية الإمام على . ويبدو من هذا أن الشيعة لم تفقد الأمل فى العودة إلى ملك مصر . بعد انتهاء دولة الأيوبيين . أو لعل ابن ثعلب هذا ممن ظلوا يطالبون على طوال تاريخ مصر الإسلامية بحق الفتح ؛ فقد تآمروا على الدولة الطولونية . وها هم يثورون فى بدء دولة المماليك ، حتى تولى فارس الدين أقطاى وغيره من المماليك تأديبهم وإعادتهم إلى نجوعهم مشتى الشمل . محلولى البرم ، إلى أمد طويل إن شاء الله .

وما من شك فى أن عز الدين إيبك كان يود لو استطاع التخلص من ربقة شجرة الدر . لولا أنها تأبى أن تقر على مال الصالح أيوب . ولقد هادنها زماناً ؛ واحتمل جبروتها زماناً ، على أمل أن تكشف له عن مخبوء الكنوز الأيوبية . بل ذهب إلى حد الرضوخ لها بتطليق زوجه أم ولده المنصور . فلم يجده ذلك نفعاً ولا شفعاً . وما عتم أن وقع التشاحن والتباغض بين رجل فى شرخ شبابه ، وزوجة فى

خريف العمر أو فى شتائه . ثم حاول الزوج أن يرفه عن نفسه ، ويوسع نطاق سياسته ، فخطب ابنه بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصل ، وكان فى هذا هلاكه .

أقول فى خريف العمر أو شتائه ، تقديراً ؛ لأن مؤرخينا لم يتركوا لنا أثراً يدل على عمر أم خليل ولا على سيمائها . ومخيلتنا نحن المصريين تجعلنى أتصور شجرة الدر فى أواخر أيامها شبيهة بالجوارى الأتراك ، اللاتى كن يحرجن من قصور إسماعيل ليتزوجن بأعيان المصريين . وأغلب من رأيناهن تعدين سن الشباب بزمان طويل ، وكن يحتفظن بمسحة من الجمال ، وبكل ما فى طبائعهن من عنجهية . وأذكر فى صغرى « جارية بيضاء » ركبت ترام الخليج المصرى ، وأخطأت الاتجاه ، فأصدرت أوامرها إلى الكمسارى ليعكس الترام خط سيره !

وانقضى أمر السلطان المعظم عز الدين إيبك التركمانى مع الجهة الصالحية ، عصمة الدنيا والدين ، بأن انقض عليه خمسة من خدام ذات السّر الجميل ، فقتلوه داخل الحمام ، وقيل بل أعدموه خنقاً . وتقول رواية بأن ذات الحجاب الجليل أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه حتى فارق الحياة . وقيل — وهو الأقرب إلى المعقول — إن القتلة لما انقضوا عليه أخذ يستغيث بأم خليل ، ويضرع إليها ، وإنها تأثرت بتضرعه ، وطلبت من غلمانها الأشداء أن يتركوه ، ولكنهم لم يستمعوا إليها خوفاً على حياتهم إذا ما بقى فى الرجل رمق . وأذيع فى صباح اليوم التالى أن السلطان إيبك انتقل إلى الرفيق الأعلى على جناح السرعة ، دون معونة من أحد ؛ فلم يصدق الناس هذا النبأ ، لأن الرجل لم يبد عليه يوماً أنه يتعجل الرحيل إلى . . . هناك !

ولا أحسب شجرة الدر كانت فى كامل عقلها عندما دبرت أمر هذه الجريمة ، ولعل لهذا علاقة بسنها المتأخر ، وما يحدث للنساء فى ذلك السن من اضطرابات نفسية وعقلية . أنظر إليها وقد قبض عليها ووضعت فى الترسيم ، تلازم الصمت المطبق ، وتدق جواهرها وحليها فى هون ، لا أدرى من تركه بأيدى تلك المجنونة ! كيف أتصور تلك العاقلة الحازمة ، التى دبرت أمور المملكة على الصورة التى عرفناها ، تقدم على قتل زوجها السلطان هذه القتلة القروية ، وتحسب أنها فى مأمن من اكتشاف أمرها ؟

فما إن يتولى السلطنة ابن إيبك من زوجته الأولى ، حتى يرسل مماليكه إلى القلعة يحققون فى مقتلة أبيه . ويقبضون على الفاعلين ، ويقررونهم ، ولم يكن ذلك بعسير فى زمان التوسيط والسلخ والسلح وما إلى ذلك من فنون التعذيب والقتل .

وتعتقل أم خليل فى البرج الأحمر بالقلعة ، ثم تقاد إلى « أم على » ضرتها التى طلقها إيبك بناء على أمر المستعصمية الصالحية ، فتأمر جواريها بضربها بالقباقيب حتى الممات . وكان ذلك فى يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الثانى عام ٦٤٨ هـ . وسحبوها من رجلها ورموها فوق السور إلى خندق القلعة وهى عريانة . ليس عليها غير اللباس فى وسطها . فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام تلغ فيها الكلاب . وقيل بأن بعض الحرافيش نزل إلى الخندق تحت جنح الليل ، وقطع دكة لباسها . لأنها كانت من حرير أحمر . وفيها كرة من لؤلؤ ونافجة مسك .

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، حملت فى قفة . ودفنت فى تربتها المعروفة إلى اليوم عند مدخل قرافة الإمام . قرب مقام السيدة نفيسة . بقسم الخليفة بالقاهرة .

* * *

بنت الزمار

كان مشكل شجرة الدر سياسيًّا عسكريًّا . عندما اضطرت إلى إخفاء موت زوجها الملك الصالح ، إبان معركة كبيرة تعلقت بنتائجها أقدار الوطن المصرى . ولم يكن هذا المشكل بأقل أو أكثر من دفع هجوم حملة الصليب الغربيين على الديار المصرية . فتحوا دمياط وبلغوا المنصورة فى طريقهم إلى القاهرة ؛ ويحدث هذا بعد كل ما صنع رأس الأسرة الأيوبية لتحرير الأراضى المقدسة من عصبة المتعصبين الأوربيين .

أما مشكل كليوباترة فى أول حياتها العامة فكان مشكل وراثة العرش اللاجيدى . وسيكون لهذا المشكل حساب فى حديثنا عن الملكة حتشبسوت . ومع أن البطالسة ألهوا زوجاتهم . وجلست نساء على عرش أبناء لاجوس . فإن بطليموس الثالث عشر ، الملقب بعازف الناى [أوليتس] أو الزمار . نص فى وصيته على أن يتولى الملك أكبر

أبنائه ، تشاركه فى الحكم وتتزوجه كبرى بناته . وكان سن الصبي لا يتعدى ثلاثة عشر عاماً ، والصبية تكبره بخمسة أعوام — وهى زيجات ، كما ترى ، من النوع العرفى ، لضرورات سياسية ! — ويعين مجلس أوصياء من مربى الأمراء الطواشى فوتينوس ومن قائد الجيوش أخيلاس ومن أستاذ البلاغة النحرير طيودوت الجنوسى . وهذا الأخير اشتهر فى التاريخ بنصيحة مشهورة تقدم بها عندما طلب القائد بومبيوس الكبير الالتجاء إلى صاحب عرش مصر ، بعد هزيمته الماحقة أمام يوليوس قيصر فى سهول فارساليا . قال أستاذ الأخلاق : « إذا آويناه أغضبنا يوليوس قيصر ، وإن صرفناه وارتفع نجمه يوماً ، حل بنا غضب روما . والرأى أن نأويه . . . ونقتله . فالموتى لا يعضون » والجملة فى الأصل اللاتينى تلاعب بلفظى الموت والعض وقد نحاول أن ننقل هذا التلاعب فى اللفظ فنقول : « فالصرعى لا يصرعون » ، أو « فمن عضهم الموت بنابه لا يعضون » .

تولى الغلام والبنية عرش مصر فى أحرج الظروف . فنجم روما قد بلغ السمت أو قارب ، فهى تهيمن على بلاد شواطئ بحر الروم كلها على وجه التقريب ، وأسماء عظمائها وقوادها ترن كالطبل فى العالم القديم : سيلا وماريوس وسبيون الأفريقى وكراسوس وبومبيوس الكبير ويوليوس قيصر .

والمستقبل مظلم أمام الفتاة كليوباترة . وتدهور الأسرة اللاجيدية أصبح بادياً للعيان ، بعد بطليموس الثالث . وروما تتدخل فى شئون دولة البطالسة الداخلية وسياستها الخارجية . فهذا أبو كليوباترة ، بطليموس الزمار ، عاد إلى عرشه بفضل مؤازرة جابنيوس ، حاكم سورية الرومانى ، وصديق بومبيوس الكبير . وكلما خلا عرش البطالسة ، ازدادت روما قرباً من غايتها وتحقيق أطماعها . فهذا بطليموس حمص [لاتيروس] يموت دون وريث ذكر ، فتتولى العرش برنيقة الثالثة ، وكان الإسكندريون يحبونها ، ويفضلون أن تبقى دون زواج . ولكن القائد سيلا ، الدكتاتور فى روما ، كان يتولى حماية أمير غرّ من أمراء البيت اللاجيدى ، هو ابن بطليموس اسكندر الأول . فوجد الفرصة مؤاتية ليوفد هذا الغرّ عريساً لبرنيقة الثالثة . وسافر الفتى إلى الإسكندرية وتزوج ملكة مصر . وشاركها الملك باسم إسكندر الثانى . . . ثم قتلها فى الأسبوع الثالث من الزواج لينفرد بالملك . فانقض الإسكندريون عليه

فى الملعب ، وقتلوه انتقاماً لملكتهم المحبوبة .

ويشاع فى روما بأن هذا الأحمق السفاح أوصى بمملكته لشعب روما . وكانت الإشاعة كافية ليبادر القصر ، ومن ورائه عدو روما متريداتس ، ملك البنطس على ضفاف البحر الأسود ، ويولى عرش مصر ابناً غير شرعى لبطليموس حمص ، ويزوجون الغلام من أخته كليوباترة الثانية . وكان هذا الغلام هو الذى استحق كنية عازف الناى [أوليتس] أو ما أسميه تبسطاً ودعابة بطليموس الزمار . فقد كان الولد هاوياً للناى ، واعتبرها الإسكندريون دواية غير جديرة بملك . وتوج الزمار فى منف طبقاً للطقوس الفرعونية ، وكان ، كجميع أفراد أسرته ، يعنى بالتقليد المصرى فى التتويج ، دون إيمان بآلهة المصريين ، ودون حساب لهم . وقد عبد الزمار هذا ديونيسيوس إله الخمر ، حتى لقب بديونيسيوس الجديد . وإذا حق لى أن أتمادى فى السخرية . فإنى أسمى والد كليوباترة ، موضوع هذا الحديث ، بطليموس الزمار المخمور .

وطبيعى أن تتوانى روما وتتردد طويلا قبل الاعتراف بالملك الزمار ، مع أنه بذل جهداً كبيراً لتحقيق هذا الاعتراف ، وأرسل ثمانية آلاف فارس من جيشه لمساعدة بومبيوس على فتح فلسطين . وسافر الزمار إلى روما ضيفاً على بومبيوس ، فإذا شعب الإسكندرية — المتوجس خيفة من عيون روما وهى تتغلغل نحو مصر — يعزل الزمار ، ويولى إحدى بناته ، باسم برنيقة الرابعة ، فيهرول الزمار إلى سورية ، يطلب من حاكمها جابنيوس ، صديق بومبيوس ، معاونته على استراد عرشه ، ويعيده جابنيوس إلى العرش ، مقابل دفع الثمن ذهباً رناناً .

ويقتل الزمار ابنته برنيقة الرابعة ، ويتحكم فى رقاب الإسكندريين ، وينهب ثرواتهم على يد مراب رومانى جاء يطالب الملك بديونه ، فأقامه جابياً لخزانته . يستولى على ما شاء من أموال المصريين . ومات الملك الزمار عام ٥١ ق.م ، مكروهاً محتقراً من شعبه .

تلك هى الظروف العسيرة التى تولت فيها كليوباترة عرش مصر بالاشتراك مع أخيها الحدث ، تحت وصاية طغمة من الأوغاد ، لا سياسة لهم أكثر من سياسة زميلهم أستاذ البلاغة ، الذى يعنى بالجناس أكثر مما يعنى بمبادئ الأخلاق :

، فمن عضهم الموت بنابه لا يعضون » . أى أمل لبقاء مصر مستقلة فى هذه الظروف ، وروما تتغزل فى قمح مصر ، وتتلمظ بنبيذ مريوط ، وتحصى السلع الشرقية التى تدخل مصر عن طريق البحر الأحمر ؟

ولا يحفظ استقلال مصر بعض الوقت إلا الحرب الأهلية الضروس ، التى قامت بين أعظم قائدين رومانيين : بين بومبيوس قاهر الشرق ، الرجل الذى أضاف إلى أملاك روما ألفا وخمسمائة قرية ومدينة ، واثنى عشر مليوناً من الأنفس ، وبين يوليوس قيصر ، فاتح الغرب : إسبانيا وغاليا وجرمانيا وبريطانيا .

فى عشرين عاماً من هنا ستتحكم روما فى أقدارها ، بعد أن يخلصها يوليوس قيصر من بومبيوس ، ويخلصها بروتوس وكاسيوس ، وأفراد العصبة الديموقراطية ، من يوليوس قيصر ، ويخلصها مارك أنطونيوس وأكتافيوس من قتلة يوليوس قيصر ، ثم يقضى أكتافيوس على أنطونيوس . وتتحول روما الجمهورية إلى إمبراطورية يحكمها أكتافيوس باسم أغسطس أكتافيانوس قيصر .

ماذا كانت تستطيعه فتاة جميلة فى السابعة أو الثامنة عشرة ، متزوجة من غلام فى العاشرة أو الثالثة عشرة من عمره ، ويسيطر على ملكها ثلاثة أو أربعة من الأوصياء الأوغاد ، ماذا كانت تستطيعه فى ذلك الصراع العالمى ، مخاض أعظم إمبراطورية فى العالم القديم ؟

كل هذا يجب أن يكون معروفاً تماماً لنفهم كليوباترة ، وندرك ما صنعته تلك المرأة الفذة فى سبيل المحافظة على عرشها ، أو كما نقول نفاقاً فى لغتنا الحديثة : الدفاع عن استقلال بلادها .

* * *

أول ما تظهر كليوباترة على صفحات المؤرخ الفنان بلوتارك تبدو فى صورة طريفة ، أبادر بأن أنقلها إليك من صفحاتها الأصلية فى ترجمة حياة يوليوس قيصر ؛ قال المؤرخ اليونانى الكبير :

« ويختلف المؤرخون فى أسباب حرب الإسكندرية ؛ فمن قائل إن غرام يوليوس قيصر بكليوباترة دفعه إلى تلك الحرب فآبت سمعته بالخزى ، كما تعرض شخصه للهلاك ؛ ومن قائل إنهم وزراء بطليموس وعلى رأسهم ، الطواشى

فوتينوس ، وهو الذى يحمل أعباء الحكم . بعد أن أمر بقتل بومبيوس وأقصى كليوباترة عن العرش ، وأخذ يدبر المؤامرات لقيصر ، مما دعا قيصر إلى السهر فى المآدب حرصاً على حياته . . . [ويظهر أن فوتينوس تمادى فى وقاحته يوماً ، فنصح قيصر بأن يفكر بمحاربة أعدائه خارج مصر ، قبل أن يعنى بتسوية الخلافات حول عرش البطالسة . . .] فأجاب قيصر بأنه لا يتلقى نصائح من المصريين ؛ وأرسل فى طلب كليوباترة [وكانت قد ذهبت إلى سوريا لتطلب معونة من يعيدها إلى عرشها ، ثم وصلت إلى حدود مصر الشرقية] ؛ فسافرت برفقة أبولودورس الصقلى على ظهر سفينة صغيرة وصلت بها تحت القصر الملكى بليل . ولكى تتمكن من الدخول إلى القصر دون أن يراها الحراس [خوفاً من ظفر عدوها فوتينوس بها] ، استخفت فى لفافة ملابس ، ربطها أبولودورس بسير من الجلد وبذلك استطاعت كليوباترة أن تصل إلى قيصر .

« وكان هذا هو الطعم الأول الذى غمزه قيصر . فقد أعجب بروح كليوباترة وظرفها ، وأجهزت عليه بلطفها ورقة حديثها ؛ فأصلحها على أخيها . واشترط على الأخ أن يقبلها شريكة له فى العرش . وفى المأدبة التى أقيمت احتفاء بالمصالحة ، عرف حلاق قيصر بتدبير فوتينوس . مشتركاً مع قائد الجيوش أخيلاس ، للقضاء على قيصر . فتحذر منهما ثم تخلص من فوتينوس بقتله . بينما هرب أخيلاس إلى معتر جيوشه . وأثارها حرباً عواناً على قيصر الذى لم يكن يحكم فى الإسكندرية إلا على جند قليل . وأول خطر أحاط بقيصر كان نقص المياه بسبب قطع المصريين لها عن الجريان فوق السور ، والخطر الثانى كان تهديد المصريين له بأسطولهم المرابط بالميناء الشرقى ، مما اضطره إلى إشعال النار فيه . فاتصلت النار بالترسانة . ومنها إلى القصر الملكى ، فاحترقت المكتبة الكبرى التى جمعها ملوك مصر . . . »

أعاد يوليوس قيصر كليوباترة إلى عرشها ؛ وكان الأوصياء أقصوها عنه ؛ فى ظروف غير معروفة تماماً . فسافرت إلى سوريا تحشد جيشاً زحفت به إلى حدود مصر الشرقية . وكان بطليموس الصغير والأوصياء واقفين لها بالمرصاد عند رأس قاسيوس إلى الشرق من فيلوزيوم [الفرما] . وهناك وافاهم بومبيوس الكبير عقب اندحاره على يد يوليوس قيصر ، فى موقعة فرساليا . ولائذاً بحمى بطليموس ،

معتمداً على ما كان له من فضل على أبيه الملك الزمار . ولكن أستاذ البلاغة السفسطائى ، طيودوت ، أشار باستقبال بومبيوس ثم قتله ؛ معتمداً على أن من عضهم الموت بنابه لا يعضون » .

وصل قيصر إلى الإسكندرية ليلحق ببومبيوس ، على رأس جحفلين ، وأسرع أستاذ البلاغة لاستقباله ، وقدم له رأس عدوه بومبيوس ؛ عربوناً على إخلاص المملكة المصرية للمنتصر فى معركة فرساليا ، فأشاح يوليوس قيصر بوجهه وبكى ، ثم أقسم لينتقمن من قتلة بومبيوس . وبر بقسمه فقتلهم جميعاً ، ما عدا الأستاذ السفسطائى ، الذى تمكن من الهرب ، وجوّب فى الآفاق شريداً طريداً ، حتى قبض عليه مارك بروتوس فى آسيا ، وأعدمه بعد أن عذبه عذاباً شديداً .

يجتاز قيصر شوارع الإسكندرية فى خيلاء الظافر ، محفوفاً بحرسه الليتورى ، يأمر وينهى كأنه فى مدينة محتلة . يقضى بتسريح جيش بطليموس المرابط فى فيلوزيوم ، ويستدعى بطليموس الصغير . ولن يخضع الجيش فقد عصى قائده أخيلاس أوامر قيصر . أما فوتينوس رب الحيل ، فسيلقى الطاب . ويسرع إلى حضرة قيصر ، بصحبة الملك الغلام . وتصل كليوباترة فى « بقجة » على الوجه الذى وصفه بلوتارك ، ويقضى قيصر لها بأن تعود إلى عرشها ، بجانب أخيها ، تنفيذاً لوصية أبيهما الزمار .

وتنشب ثورة المصريين حول قيصر ، وتحدث الوقائع المشهورة ، التى ينجو منها بحياته ، إلا أن ثمنها الفادح كان حريق المكتبة العظيمة ؛ التى تعد أكبر خسارة علمية حلت بمصر ، بل وبالعالم أجمع . وتلحق النجدة بقيصر على أيدى متريداتس أمير برجامة ، والملك أنتيباتر بن هيروديوس ، ملك اليهودية ؛ فيهزم البرجاميون جيش أخيلاس فى الدلتا ، ويدور قيصر حول بحيرة مريوط ، ليتصل بمتريداتس . ويقضى على فلول بطليموس الصغير ، الذى يموت فى الموقعة أو يغرق فى النيل (عام ٤٧ ق.م.)

وهنا يتساءل بلوتارك عن أسباب حرب الإسكندرية هذه : أكانت غرام قيصر بكليوباترة . أم مؤامرات مربى الأمراء الطواشى فوتينوس ؛ الذى طرد كليوباترة من العرش ؟

أما إن يوليوس قيصر أحب كليوباترة . فهذا ليس موضوع شك . فقد تلبث طويلا إلى جانب الملكة الفتاة ، التى لم تبلغ بعد العشرين ربيعاً ، واصطحبها فى رحلة سياحية إلى الصعيد ، قضاها معها فيما يشبه شهر العسل . ولم تنكر كليوباترة علاقتها بالدكتاتور الرومانى ، فقد سمت الطفل الذى أنجبته منه قيصاريون [أى قويصر] .

أضاع قيصر وقته . والجيوش تحشد ضد روما على ضفاف البوسفور بقيادة الملك فرناس ، وفى إسبانيا وشمالى إفريقيا ، حيث يحكم أصدقاء بومبيوس وأعوانه ، بينما شبه الجزيرة الإيطالية ملأى بالمتاعب والاضطرابات ؛ فما أحوج الوطن الرومانى إلى قيصر !

ويهب قيصر بعد عودته من رحلة العسل بمصر العليا ، فيسافر إلى البسفور ، وينقض على فرناس فى البلقان ، ويقضى عليه فى لمح البصر . ويرسل إلى روما أقصر بلاغ عسكرى ، وأبلغ رسالة يقول فيها : « جئت وعاينت وظفرت »

كانت كليوباترة كاعباً لا تقاوم ؛ رآها قيصر فى زهرة العمر تخرج رقيقة صغيرة ، من لفافة ملابس ، فأعجب بتلك الغادة الساحرة ؛ وما أظنه إلا وقد افترّ ثغره عن ابتسامة ، وهو يرى أمامه ملكة مصر . وريثة عرش البطالسة والفراعنة ، تخرج من بقجة !

كانت فى ربيع العمر أشد ما تكون نضارة ، رائعة السناء ، حلوة النغم ، ذكية الطبع ، مشرقة النفس ، متعلمة مثقفة . ربما كانت الوحيدة من بيت لاجوس التى تحدثت إلى المصريين بلغتهم .

أحبها يوليوس قيصر وهو فى قمة مجده . والمستقبل فى روما له . واستضافها فى قصره الريفى ، عبر نهر التيبر بضواحى روما ، فى العام السادس والأربعين قبل الميلاد لتشهد الاحتفالات الكبرى بانتصاراته فى بلاد الغال ، وفى بنطس ، وفى إفريقيا ؛ وفى مصر . وكانت كليوباترة قذى فى عيون الرومان الجمهوريين ، كارهى الملوك . حتى أن سيسيرون لم يفتأ يكرر كلما جاء ذكرها « أكره الملكة » ، ونعتها بلينيوس الصغير نعتاً بذيئاً : « بملكة المو . . » . ولعل الرومان حملوها تبعة تحول أطماع قائدهم الكبير نحو القضاء على النظام الجمهورى ، بل لقد ذهبوا

إلى أن قيصر يطمح فى أن يقيم فى روما نظاماً ملكياً من قبيل ما كان يمارسه البطالسة والسلوقيون فى مصر والشرق الهلينستى . ثم ألا تكون كليوباترة هى التى أوحت إلى مارك أنطونيوس بتلك الحركة المسرحية فى أعياد منتصف فبراير . « اللوبركالا ت » . عندما قدم لقيصر تاجاً . فصاح الشعب مستنكراً . وطالب قيصر بأن يرفض هذا الرمز البغيض .

ولبثت كليوباترة فى روما سنتين ، أو بضواحيها ، ولم تعد إلا بعد مقتل يوليوس قيصر فى أعياد منتصف مارس ، « الإيدات » . عادت وقد شهدت انهيار آمالها فى أن تحكم العالم الرومانى إلى جانب قيصر .

ويقتسم نفوذ قيصر فى جمهورية روما ، إبان الأعوام الأخيرة من حياة الجمهورية . اثنان . وهما اللذان طاردا قتلة قيصر . ودحراهم فى وادى فليبس : الأول أكتافيوس . ابن بنت أخت يوليوس قيصر ، وقد ورث جده . وأصبح اسمه كايوس يوليوس قيصر أكتافيانوس ، والثانى مارك أنطونيوس . قائد الفرسان فى جحافل يوليوس قيصر . ويعود أكتافيانوس إلى روما يسوس أمور شبه الجزيرة . ويوزع الأراضى على قدماء المحاربين ، ويذهب أنطونيوس إلى الشرق ينظم أحواله . ويبتز لخزانة روما - ولنفسه - من المال ما تصل إليه أيدى أعوانه .

ولقد بلغ أنطونيوس عن بعض مواقف للملكة مصر بعد مقتل قيصر ، ما دعاه لأن يرسل فى طلبها لتبرئ نفسها مما اتهمت به . وشك فى أن يكون هذا السبب صحيحاً . وإنما هى حجة القائد المغرور ، زير النساء الذى لا خلاق له ، تذرع بها ليتصل بعشيقة أستاذه ورئيسه . يوليوس قيصر .

والملكة المصرية كانت ولا شك تعرف من أمر أنطونيوس الشىء الكثير ، وقد تريثت فى الاستجابة إليه ، دون غيرها ممن استدعاهم القائد الرومانى . من حكام آسيا ، يمتحن إخلاصهم لروما ، ولشخصه . فلم يغضب أنطونيوس من تلكؤها . وإنما زاد ذلك من ناره ، فأوفد إليها صديقاً يؤكد لها أن سيده لا يريد بها شراً . ولم تكن كليوباترة من السذاجة إلى حد أن تخشى على نفسها من شر ذلك الجندى . الذى زاحمت خمر ياته ومغامراته النسائية . أعماله العسكرية .

ولعل بلوتارك هو الساذج عندما يقص علينا أن الصديق دليوس ، عندما زار الملكة وسحر بحديثها وجمالها ، أيقن أن أنطونيوس لا يمكن أن يجرح أو يضايق امرأة على هذه الخصال وبهذا القد والحسن . وها هو ذا الصديق القواد ينصح كليو باترة بأن تذهب إلى مركز قيادة أنطونيوس فى أبهى حلة ، مما يضاعف من سحرها ؛ ويؤكد لها أن أنطونيوس إنسان يفيض رقه وحناناً . . . وكأنه أراد أن يقول لها إن الرجل كله نظر !

ويقول بلوتارك بأن كليوباترة صدقت أقوال دليوس ، وقد خبرت بالتجربة كيف كان تأثيرها على يوليوس قيصر ، وعلى ابن بومبيوس الكبير من قبل ، مع أنهما لم يعرفاها إلا وهى فتاة غرة ؛ أما أنطونيوس فسيراها فى السن الذى يتفجر فيه جمال الأنثى ، ويبلغ عقلها كماله وقوته .

وقصة وصول كليوباترة إلى بلاد كليكيا ، وسفرها فى نهر الكدنوس على سفينة رائعة البهاء ، قصة مشهورة . وقد بهر الناس عندما رأوها فى فلكها المذهب ، ذى الشراع القرمزية والمجاديف الفضية ، تتحرك على إيقاع ألحان الشبابة والناى والقيثار ، يحف بها أطفال فى لباس كيوبيد إله الغرام ، ووصيفات فى لبسة المتفضل ، وكأنهن « النرياد والناياد » جنيات الماء ، يمشين فى ركاب فينوس ؛ وأعطار الملكة تتضوع على ضفاف الكدنوس ، والبخور يعبق وينطلق إلى اليمين وإلى اليسار من مجامر الذهب والفضة ، حتى ليحسبن الناس أن فينوس تخلق من جديد ، وتخرج من صدفتها درة يتيمة ، سويت من زبد البحر الناصع البياض . وبما أن أنطونيوس كان يروق له . فى أعياد انتصاره ، أن يظهر فى صورة إله الخمر ديونسيوس ، فقد قال الناس : هذه فينوس همت للقاء ديونسيوس .

ويمكن تصور بقية الحكاية ، فلم يكن فى الأمر كما قلنا تحقيق سياسى ولا مساءلة عسكرية . إنما كان موعد غرام .

يدعوها أنطونيوس ، فترجوه أن يتفضل بقبول دعوتها أولا . وطار عقل القائد الرومانى وقد رأى فى حفلها ما رأى وسمع وشم وذاق وازدرد . فإذا وافته إلى مأدبته ، كان على رأس الساخرين بطهاته وسقاته ومنظمى سمره . وعندما لاحظت كليوباترة أن نكات ذلك العتل الرومانى تتضح بجلافة الجندى ، حذت حذو أسلوبه ،

وسابقته فى بذاءاته .

يقول بلوتارك . كما يقول ديون كاسيوس وغيرهما . إن جمال كليوباترة لم يكن فى ذاته فائقاً عزيز النظير . وإنما كانت لها جاذبية لا تقاوم ، فحسنها ، وحلو حديثها . ورقة طبعها ؛ كانت تسدد كلها سهاماً إلى أم الفؤاد ، كان جرسها كله عذوبة . ولسانها آلة موسيقية تلعب على أوتارها لعب صناع ؛ تنطق باللغات الأجنبية نطقاً سليماً ، لم يحوجها شعب من الشعوب التى تعاملها إلى ترجمان ، فكانت تتحدث بلسانهم إلى الإثيوبيين والبجاويين والعبرانيين والعرب والسوريان والميديين والفرس ، بينما البطالسة كانوا يعانون صعوبة فى تعلم لغة المصريين ، ونسى بعضهم لغته الأصلية ، كما نسى بلوتارك أن يقول لنا بأية لغة كان يتحدث هؤلاء إذا كانوا قد جهلوا لغتهم المقدونية . . . ولم يتعلموا لغة المصريين !

استحوذت كليوباترة على قلب أنطونيوس حتى أهمل أمر زوجته الأولى ، فولفيا ، وهى التى كانت تجاهد من أجله فى روما ضد أكتافيانوس ، وترك جيوش الفرس تتأهب للهجوم على سورية ؛ وسلم قياده لتلك المرأة تسحبه من أنفه حتى الإسكندرية ، حيث لم يعد للزمن عنده حساب ، وقد ضحى فى الفراغ والبلادة والملذات أعز ما يملك الإنسان ، والسياسى بوجه خاص ، وهو الوقت .

لم تكن كليوباترة تتركه ليلا ولا نهاراً ، يأكلان ويلعبان سوياً ، يخرجان للصيد يداً بيد . وتحضر معه العرض العسكرى .

ومن الدعابات التى يحكيها بلوتارك ، دعابة عملية قامت بها كليوباترة على حساب حبيبها المأخوذ بسحرها . أراد أنطونيوس أن يظهر لها براعته فى صيد السمك ، فأوعز إلى بعض الغواصين أن يشبكوا السمك فى سنارته ، كلما ألقى بخيطه إلى الماء . ولم تخف الحيلة على الملكة ، ودبرت له أمراً . . . وإذا مارك أنطونيوس ، ثالث الثلاثة الكبار فى روما [الذى يومئذ] يسحب سنارته فتصيد . . . . فسيخاً ! يضحك الجلف ، ويقهقه الصحاب وتقول الملكة : « خل عنك يا سيدى القائد . واترك لنا الخيط والسنار ، نحن الذين نحكم فى كانوب وجزيرة الفنار . أما أنت فليق صيدك الملوك والمدائن والأقطار ! » . تقول له ذلك وهى تعلم أن أنطونيوس لم يعد أكثر من فرخ سمك تعلق فى شصها . أو عجل بحر وقع فى شراكها .

لم تكن روما لتقف من أمر رجلها الكبير موقفاً سلبياً ؛ فهى تسعى لانتشاله من بين أحضان الساحرة الشرقية . وكان موت زوجته فولڤيا — التى قضت نحبها كمداً فيما يغلب — فرصة انتهزها أولاد الحلال لإصلاح ذات البين ، ووصل ما انقطع بين أكتافيانوس وأنطونيوس . فسعوا لتزويجه من أكتافيا أخت أكتافيانوس . ونجحوا فى إبعاد أنطونيوس عن كليوباترة زماناً طويلا ، ليعيش مع زوجته الرومانية الفاضلة . ويعنى بشئون الدولة والحرب . ولقد سافر إلى الشرق يستأنف القتال ، واصطحب معه أكتافيا . ولكنه ، عند أول فرصة ، تخلص منها بحجة عدم تعريضها لمتاعب الحملة العسكرية . . . وطار إلى أنطاكية ، حيث وافته كليوباترة ، وكان فراقهما قد امتد إلى نحو ثلاث سنوات .

لا أحسب المدافعين عن كليوباترة — لأن للسيدة الشهيرة أنصاراً معاصرين لنا — بقادرين على نقض حكم التاريخ عليها . فهى إما امرأة تستخدم العلاقات الغرامية لتحقيق أطماعها السياسية ، وذلك يضع قدرها كامرأة ؛ أو أن غرامها بأنطونيوس أعماها عن مصالح الدولة ، فهى ملكة وضيعة .

ولابد أن تكون الحقيقة بين بين — ولم نكتشف هنا شيئاً جديداً فالمسألة كما ترى « فيها قولان » ! — كليوباترة أحبت أنطونيوس حباً جارفاً ، قد يكون شكسبير غير بعيد عن حقيقته فى أعظم رواياته الغرامية : « أنطونى وكليوباترة » ، ولكنه كان حب المرأة المدربة « القرارية » ، التى لا تنسى مصالحها فى غمار عواطفها. وقد رأت فى رجل روما الكبير وسيلتها الوحيدة لإنقاذ مملكتها من براثن روما ، بل لاستعادة مجد العرش المصرى . وانقاد الرجل لها ، وراح ينفذ أغراضها ، وقدنبذ العقل والحكمة والوطنية جانباً .

أما أن سياسة كليوباترة نجحت إلى حين ، فالوقائع تثبته . ولفهم ذلك يحسن أن نعرف شيئاً عن سياسة البيت اللاجيدى ، وهى السياسة التى رسمها بطليموس الأول لنفسه ولأحفاده :

يجب على الدولة المصرية أن تحكم البلاد المتاخمة لها حتى تؤمن حدودها . يجب أن تحكم فى برقة إلى الغرب ، وفى سورية — بمعناها القديم — أو على الأقل فى الجزء الجنوبى منها . يجب التحكم فى مجرى النيل الأعلى ، وفى مرافئ البحر

الأحمر . رأس الخط الملاحى إلى الجنوب وإلى البحر الشرقى الكبير . يجب أن تقوم صلات من نوع ما . فيها معنى السيطرة . بين الشاطئ المصرى والجزر الواقعة فى شرقى بحر الروم : كريت وقبرص ورودس وأرخبيل السكلاده ؛ وبين الشاطئ المصرى والشاطئ الفينيقى وشواطئ آسيا الصغرى . لأن موانئ تلك الشواطئ هى رأس الطريق البرى عبر آسيا ؛ لوصول الأفاويه والطيب والغضار والحرير .

ومصر — فى سياسة بطليموس الأول — يجب أن تستعين برءوس الأموال وبالعقول الهلينية . ويستدعى ذلك ضرورة اجتذاب الإغريق إلى مصر . والمحافظة على هيبة الوطن المصرى فى بلاد اليونان .

ومعنى هذه السياسة ، فى أقلها ، الحيلولة دون قيام دولة عظمى موحدة تناخم مصر .

ولكن الظروف الدولية تغيرت فى نهاية أسرة اللاجيديين . وقامت دولة عظمى — روما — لا تناخم مصر . ولكنها تستولى على العالم القديم كله ، أو ما يكاد . فماذا تستطيع امرأة وحدها ، أمام هذه الدولة الزاحفة كأنها قوة من قوى الطبيعة ؟ وهل تصورت كليوباترة أن سيطرتها على أنطونيوس — أحد الثلاثة الكبار فى روما . بل أحد الاثنين لأن ثالثهما ليبدوس أهمل أمره وانتهى بأن لزم بيته وضيعته — يمكن أن تحقق لها بعض ما حفظته فى أسرتها من مبادئ سياسية ؟ كان يجب أن تفهم أن مارك أنطونيوس ليس يوليوس قيصر . وأن وارث قيصر الفعلى والسياسى ، هو أكتافيانوس . الرزين الحريص . الذى يعمل فى تؤدة . ويعرف متى يقبع متحفزاً . ومتى يثب وثباته التى تنقل روما من عهدها الجمهورى (فلم يعد أهلها صالحين للحياة الديموقراطية ، التى تتطلب أول ما تتطلب : الأمانة والنزاهة وإقامة شرعة العدل المطلق بين المحكومين) إلى عهدها الإمبراطورى . حيث تتركز السلطة فى يد رأس الدولة . وسيرفض أكتافيانوس لقب الملك والعاهل ويكتفى بلقب « Princeps civitatis » ، أى المواطن الأول فى الجمهورية . أما لقب « إمبراطور » فمعناه القائد الأعلى للجيوش . وأهم منه لقب « أغسطس » . أى المعظم . وسيعمل أغسطس قيصر على إقامة السلام الرومانى تحت قيادة روما . وسوف يعرف حكمه الطويل باسم العهد الأغسطينى .

لم تكن كليوباترة لتستطيع الاستحواذ على فلسطين . لأن ملك اليهودية هيرود يوس كان أسبق منها وأقدر على كسب صداقة روما . ولكن أنطونيوس مكنها من إمارة خلكيس . فى شمالى سورية . ومن الشاطئ الفينيقى . فيما عدا صور وصيدا . ومن أراضى « بطرا » . شرقى الأردن . ومن بعض قبرص وكريت . وبعض شاطئ كليكيا . الغنية بأخشابها . وبعض أجزاء من بلاد اليهودية . مثل منطقة أريحا . وأشجار بلسمها المشهور . وبعض أرمينيا وليبيا . وكل هذه الأراضى كانت ثمرة انتصارات قواد روما العظام : سيلا وكراسوس وبومبيوس الكبير .

ولو عرفت كليوباترة أن أنطونيوس ارتكب إثماً فى حق الجمهورية الرومانية . عندما تصرف فى أملاكها هذا التصرف الأحمق . لوقفت بها أطماعها عند هذا الحد . ولكنها — المرأة — لم ترض بأن تشاركها فى أنطونيوس ضرة رومانية . هى أكتافيا . أخت الرجل الأول فى روما : أكتافيانوس قيصر . ومن هنا كانت لعبتها الخطرة الحمقاء . التى أضاعت بها كل ما كسبت ؛ بل كل ما ورثت عن أبيها . فالقطيعة بين أنطونيوس وزوجته أكتافيا نهاية العلاقات بين أكتافيانوس وبينه . ولابد أن تنتهى بالحرب بين الاثنين . وروما ظفرت دائماً بأعدائها . سواء كانوا من الأجانب أو من أبنائها . حتى لو كان الثائر عليها قائدها العظيم بومبيوس .

وقد حدثت القطيعة النهائية عندما أرسل أنطونيوس ورقة الطلاق للماترونة الرومانية . فخرجت من منزل زوجها إلى منزل أخيها أكتافيانوس . وتلقت روما هذه الإهانة البالغة صفعة مدوية . جاءت على إثر عطايا أنطونيوس إلى عشيقته الملكة المصرية . يقتطعها من أملاك روما . ولقد هالتها أخبار حفلة انتصار أنطونيوس . التى أعلن فيها تقسيم مستعمرات روما فى الشرق الأدنى بين عشيقته وأولادها :

فى ملعب الإسكندرية الكبير أمام كبار رجال الدولة والجيش والشعب ؛ وعلى مقربة من « السوما » . قبر الإسكندر . أقيمت منصة كبيرة من الفضة . وضع فى أعلاها عرشان من ذهب ؛ جلس عليهما كليوباترة وأنطونيوس ، وفى الدرجة التالية جلس قويصر (قيصاريون) بن يوليوس قيصر من كليوباترة . وقد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ؛ وتحته جلس ثلاثة أطفال كليوباترة من

مارك أنطونيوس : التوأمان اسكندر هليوس(شمس) وكليوباترة سلينة (قمر) ، وعمرهما ستة أعوام ؛ ثم آخر العنقود لأنطونيوس . الطفل بطليموس فيلادلفوس ؛ وعمره سنتان . أما اسكندر شمس فقد ألبس ملابس بلاد ميديا بآسيا الصغرى ؛ ووضع تاجها السامق فوق رأسه . ولبس الطفل بطليموس ملابس ملوك مقدونيا .

وقام أنطونيوس يخطب .. وكان للرجل ملكة خطابية لا تنكر ، إلى جمال رجولته ، وارتفاع قامته — ويعلن إرادته بأن تلقب كليوباترة ، زوجة قيصر العظيم ، ملكة مصر وقبرص وسوريا . بلقب «ملكة الملوك» (لا الملكات فحسب) . ثم يتجه إلى قويصر ويعلن بأنه الابن « الشرعى » ليوليوس قيصر وكليوباترة . يشارك أمه الحكم ، ويلقب بملك الملوك . أما إسكندر شمس فيوليه ملكاً على أرمينيا وميديا وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهرى السند والفرات ، ومنها مملكة « الفارطيين » (مع ملاحظة أن هذه الأراضى لم تكن قد افتتحت !) . أما الطفل بطليموس فيلادلفوس فقد أقامه ملكاً على سورية ، وعلى كل البلاد الواقعة بين نهر الفرات ومضيق الدردنيل (أى آسيا الصغرى). والطفلة كليوباترة قمر وليت عرش ليبيا !

* * *

ذهب الهادئ الرزين أكتافيانوس قيصر إلى هيكل « القستا » ، حين عرف بأن أنطونيوس أودع وصيته بين أيدى الراهبات القستالات سدنة المعبد ؛ طالب الكاهنات بها فأجبنه بأن ما ينويه . من اعتداء صارخ على شرائع روما ، لن يسمحن به . فاقتحم المعبد ، وانتزع وصية أنطونيوس وذهب بها إلى مجلس الشيوخ ، لتتلى على الملأ . ومع أن شيوخ روما يكرهون هذا التشهير العلنى بدخائل الناس ، وما استودعوه من سر لا يفشى إلا بعد موتهم . فإن الوصية تكشف عن مخازٍ تجعلهم ينسون كل شىء سوى أن ابناً كبيراً من أبناء روما ، يوصي بكل شىء لأولاد « الملكة الشرقية الداعرة » ، بل ويوصى ، إذا مات بعيداً عن مصر ، أن ينقل جثمانه ليدفن بالإسكندرية !

لم يبق إلا أن يقوم أكتافيانوس قيصر بأداء وظيفة من وظائفه الكهنوتية هى وظيفة « الفسيال » ، فيتجه حاملا رمحاً إلى معبد « بلونه » ، إلهة الحرب ، ويجرى

التقليد الرومانى العريق فى إعلان الحرب ، وهو رمى الرمح فوق عمود قائم أمام المعبد ، يرمز إلى حدود روما .وينضو الشيوخ عنهم « التوجا » ليلبسوا عدة القتال .

على من أعلنت روما الحرب ؟ على كليوباترة ، لا على أنطونيوس ، ولا على جيوشه ورجال أسطوله ، من أبناء روما . وفى ذلك نستبين كنه المدبر الماكر أكتافيانوس : إنه ، فيما يجىء من أحداث الحرب ، وفى مفاوضات التسليم أو السلام ، لن يرد على أنطونيوس ، وإنما على الملكة المصرية ؛ فأنطونيوس لم يعد له وجود شرعى على ظهر الأرض ! أما أتباعه ، فإنهم لم يعلنوا بأنهم أعداء الوطن ،ليترك لهم الباب مفتوحاً ، كى يتخلوا عن زعيمهم الخائن . ويعودوا إلى رحاب الوطن الرومانى .

ويقع الصدام على شاطئ إبيروس من بلاد اليونان ، فى اليوم الثانى من شهر سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد ، بين أسطول أنطونيوس وكليوباترة الذى تجمع فى خليج يعرف الآن باسم خليج بريفيزا ، وجيوش أنطونيوس المحشودة عند رأس أكتيوم ، وبين أسطول روما بقيادة منشئه البطل أجريبا ، وجيوش روما بقيادة أكتافيانوس ، على الضفة المواجهة لرأس أكتيوم .

وقد اتجه رأى مستشارى أنطونيوس إلى بدء المعركة فى البر ، ولكن العدد المتزايد من رجال جيشه ، الذين أخذوا يتخلون عنه ، حدا بأنطونيوس إلى تجنب الحرب على الأرض . بل وفى البحر ، فقد فكر فى أن يهرب بأسطوله وأسطول كليوباترة ، ويترك جيشه البرى لقضائه . ولكن أجريبا ، الواقف له بالمرصاد ، يرغمه على القتال . وتنشب المعركة التاريخية الكبرى ، بين أسطولين متعادلين عدداً ؛ إلا أن أسطول روما كان مدرباً تدريباً خاصاً على سرعة الحركة والالتفاف ، وسفنه كانت أخف مناورة من سفن أنطونيوس .

وفى إبان المعركة — التى لم يشارك فيها أسطول كليوباترة الراسى بخليج بريفيزا — تهب ريح مؤاتية ، فتأمر الملكة المصرية سفنها بالإقلاع ، وتمر بمراكبها الستين وسط المتحاربين ، تلتمس النجاة ، وتتجه إلى شواطئ البلوبونيز . ومنها إلى الإسكندرية .وما إن يرى أنطونيوس عشيقته تهجره ، حتى يتبعها بسفينته ، ويتخلى عن رجاله فى البحر ، كما تخلى عن رجاله فى البر عند رأس أكتيوم .

ويستسلم جيش أنطونيوس لأكتافيانوس ، ويدمر أجريبا أسطول عدو روما .

ونتائج هذه الموقعة المشهورة كان يجب أن يتوقعها العابثون بأقدار الممالك . فقد انتهت بها ، أو بعدها بعام . دولة البطالسة . ودخلت مصر فى حوزة الرومان ، وتحولت للمرة الأولى أو الثانية فى تاريخها إلى إقليم أو مقاطعة ، يحكمها موظف رومانى من قبل الإمبراطور . وسوف تجرى عليها العوادى على هذه الوتيرة مرتين بعد ذلك : بعد الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، وبعد الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر .

لم يطارد أكتافيانوس أعداءه المنهزمين . بل تركهم يمرحون ، أو بالأولى يعمهون فى ضلالتهم نحو العام . فقد وثق أن لا منجاة لهم بعد الآن . وأرسلوا الرسل يسترحمون الظافر ، فإذا هو يستجيب لكليوباترة وحدها ، ويحيى فى نفسها بعض الأمل . أما أنطونيوس فقد سبق القول بأنه لم يعد له وجود شرعى على ظهر الأرض . يحيى فى كليوباترة بعض الأمل . أو أنه الأمل الكامل فى سحر أنوثتها . جربته مع عظماء روما . . وكان دائماً مضمون المفعول ؟ ومن يكون هذا الأكتافيانوس ، وما زال فى شرخ الشباب . إلى جانب الرجال المحنكين يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس ؟

وأخيراً ينقض أكتافيانوس . كالقضاء إذا حم على ميناء فيلوزيوم [الفرما] ، فلا يلقى مقاومة . ويزحف على الإسكندرية دون هوادة ، ويحاول أنطونيوس أن يقاوم بفرسانه - وهو ضابط الفرسان ! . وبالأسطول المصرى ، فيخونه فرسانه . ويحيى البحارة المصريون أسطول أكتافيانوس برفع مجاديفهم . عندئذ تتكشف أمام عيون القائد الرومانى المغرور هوة الخيانة ، لا خيانته هو لروما ، بل خيانة عشيقته الملكية ! . . . ولكن عينى العاشق لا تريان ، وأذنيه لا تسمعان . ومشاعره كلها تكذب ما يدركه العقل . وإذا بواقعة واحدة تحيى فى نفسه الأمل بأن كليوباترة مقيمة على عهده : فقد جاءه الخبر من لدنها بأنها فارقت الحياة ، فى داخل القبر الواسع . أو المدفن اللاجيدى الفرعونى الكبير . الذى أعدته لنفسها ، وكدست فيه كنوزها !

وكانا قد تعاهدا على الموت سوياً ، فلم يبق أمامه إلا الموت على الطريقة الرومانية . وبينما يعانى سكرات الموت ، يبلغه أن خبر موت كليوباترة سبق أوانه ، فيطلب أن يحمل إليها ليموت إلى جانبها ؛ وكان له ما طلب .

كما كان لكليوباترة ما طلبت من أن تلتقى بأكتافيانوس ؛ وتم هذا اللقاء بعد مناورات ومداورات طويلة — ولا نقول مفاوضات — بين ذلك السياسى المراوغ الحذر ، وبين المرأة العبقرية ، التى هزت العالم الرومانى هزاً . كان أكتافيانوس يحرص على شىء واحد ، هو أن يقتادها إلى روما لتسير فى موكب انتصاره ؛ وقد أثرت عن كليوباترة كلمة ، كانت تعاود التلفظ بها فى إصرار عجيب : « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرنى على السير فى موكب انتصاره » . لقد شهدت فى شبابها موكب انتصار عشيقها يوليوس قيصر ، ورأت أختها وعدوتها أرسنوى تجرّ أسيرة فى ذلك الموكب ، فلن يجرى عليها ذلك أبداً أبداً !

تم اللقاء فى قصر الملكة ؛ فقد انتهت المناورات إلى أن رضيت بمغادرة قبرها الكبير ، والعودة إلى القصر ، حيث قام على حراستها إبيافروديت ، ينفذ تعليمات أكتافيانوس بأن تعامل كملكة ، تحقق كل رغباتها ، فيما عدا ما يمكنها من الانتحار .

ماذا حدث فى هذا اللقاء بين مؤسس الإمبراطورية الرومانية والملكة التى دوخت الرجال بأنوثتها وسحرها وعقلها وجمالها ؟ ماذا كان الحوار بين الملكة الشرقية والإمبراطور الغربى ؟ من يدرى ؟ كل ما تركه لنا التاريخ — وقد لا يكون صادقاً — أنه هدأ من روعها وقال لها « سرى عنك ، ولا تخشى أية معاملة عنيفة » . فالتاريخ يتصور الرجل البارد الهادئ ، لا يعنى إلا بأمر واحد ، لا ثانى له ، وهو أن يقتاد كليوباترة حية إلى روما ، لتسير فى موكب انتصاره . لأن روما ، وعلى رأسها هذا الشاب الذى يحمل على كتفيه أقدار العالم القديم ، وفى رأسه عقل السياسى الحكيم ، تريد أن تشفى غليل حقدها على المرأة التى استأسرت بلب رجلها الأعظم يوليوس قيصر . ونزلت بقدر قائد من كبار قوادها ، وقنصل من قناصلها ، وأحد « الترومفير » ، إلى وهدة الخيانة الوطنية .

وعندما تأكدت كليوباترة من أن مراوغات أكتافيانوس ، ولطفه معها ، لا تهدف إلا إلى إذلالها فى موكب النصر بروما ، قررت أن تموت ، ولجأت إلى حيلة بسيطة ، وهى أن يفهم الجميع بأنها راضية ، وأنها تعد نفسها للسفر مع أكتافيانوس وجعلت تختار الهدايا التى ستقدمها إلى ليڤيا زوجة أكتافيانوس ، وإلى أوكتافيا أخته ، مطلقة أنطونيوس . وذهبت لزيارة قبر حبيبها أنطونيوس لتودعه « قبل سفرها » . كل ذلك خدع حارسها إبيأفروديت ، مما سهل لها الحصول على السم الذى تنهى به حياتها .

وذات يوم نادت على حارسها هذا — وهو موقن باستسلامها — وأعطته رسالة عاجلة إلى أكتافيانوس ؛ وما إن أدار الرجل ظهره ، حتى أوصدت الباب عليها وعلى وصيفتى الشرف إراس وكارميون .

فتح أكتافيانوس رسالة كليوباترة ، وفهم من أول كلماتها ما حدث : إنها ترجوه أن يوسدها القبر إلى جانب مارك أنطونيوس !

وهرول الجميع إلى القصر ، ليروا الملكة كليوباترة ، بنت بطليموس الثالث عشر ، الملقب فيلوباطور — فيلوميتور ، التى شغلت حياتها العالم الرومانى ، وأقضت مضاجع عظمائه ، كليوباترة آخر سلسلة الملوك المستقلين الذين تولوا حكم مصر منذ مينا ، رأس الأسرة الفرعونية الأولى فى الدولة القديمة ، كليوباترة الساحرة الجميلة الذكية ، معشوقة يوليوس قيصر ، وحبيبة مارك أنطونيوس . هرول الجميع ليروا كليوباترة ممددة على سريرها ، فى أبهى زينة ملكية ، فاقدة الحس والحركة ، وإلى جانب سريرها سقطت الفتاتان كارميون وإراس ، وثلاثتهن فارقن الحياة . كما قرر الأطباء الذين استدعاهم أكتافيانوس توًّا . وقيل بأن ضابطاً رومانيًّا اقترب من الوصيفة كارميون ، وهى فى الرمق الأخير ، وقال لها : « ما هذا الصنيع ؟ » فأجابته الفتاة : « خير صنيع ، والأجدر بملكة انحدرت من صلب كل أولئك الملوك ! » . وقد التجأ الإمبراطور إلى الحواة المشهورين فى مصر القديمة باسم « بسللوس » ، ليمصوا السم من جرح بذراع كليوباترة ، وقيل بل فوق صدرها ؛ ولكن كليوباترة أفلتت من أيدى آسرها الرومانى ، و « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرنى على السير فى موكب انتصاره » .

أما أن كليوباترة ماتت مسمومه ، فهذا ما لا ينقضه شك . ولست مستعداً لتصديق حكاية الصل [كوبرا = Naja haje] الذى أدخل عليها مختبئا فى سلة تين ، وأنها مدت يدها ودستها بين التين ، ليعضها ذلك الصل الأنيس ، الذى يقضى عطلته السنوية مكعكا بين حبات التين ! وكأنه على ميعاد مع ثلاث غانيات يعضّ أولهن . . . برفق . . . ، ثم يخرج متثاقلا لينفث سمه فى رفيقتيها . لكنها حكاية رومانتيكية تنفع المخرجين السينمائيين ؛ كما انتفع بها أكتافيانوس فى موكب انتصاره بروما ؛ فقد سحب خلفه تمثالا يصور ملكة مصر ، ممددة على سريرها يلتف حول ذراعها صل قاتل .

وكليوباترة تستحق منا كلمة رثاء ، كامرأة رائعة البهاء ، وملكة استردت كل حقوقها الملكية ، ووسعت رقعة ملكها ، عن طريق أنوثتها وألمعيتها وجمالها .

وكان المؤرخ طارن ، وهو على رأس الثقات فى تاريخ الحضارة الهلينستية ، يعتبرها أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر ، وقال فيها قالته المشهورة : « كانت روما فى زمانها ، وهى التى لم تخش أمة ولا شعباً ، تهاب شخصين ، أحدهما هانيبال ، وكان الثانى . . . امرأة ! » .

أما مارك أنطونيوس فحسبه أن يذكر فى عداد . . . شهداء الغرام .

* * *

الصعيدية

أضاعت بنت الزمار عرش البطالسة واستقلال مصر ؛ وحفظت أم خليل الملك ، الذى ورثته عن آل أيوب ، لحشداشيها . كانت كليوباترة آخر ملوك البطالسة ، وكانت شجرة الدر أول سلاطين المماليك . أما ثالثة الملكات ، فلم تختم على خيبة أسرة ملكية ، ولم تفتح الطريق لأسرة ملكية ، وإنما قامت فى الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بشخصيتها الفارعة ، وسط صف من الملوك العظام : أسرة تحوتمس وأمنحوتب ، والثائر آخناتون ، والملك الصغير المرتد توت عنخ آمون .

ثالثة ملكاتنا مصرية صعيدية ، وكانت أعظمهن شخصية وقدراً . فالحرب التى مارستها لم تكن حرب فتوح ، ولا حرب دفاع . ولكنها كانت حرب امرأة

تطالب بحقها فى العرش — مثل كليوباترة — وتحصل عليه . ثم تطلب شيئاً لم تفكر به كليوباترة ولا شجرة الدر ، وهو مساواتها بالرجال : فتسوى بالرجال ، لا لترفس وتنطح ، بل لتعمل من أجل السلام ، وتمارس المهنة المصرية القديمة : صناعة الحضارة !

فى حفلة الملعب الإسكندرى ، أطلق زير النساء الرومانى على عشيقته المقدونية لقب « ملكة الملوك » — لا الملكات — . ولكن ملكة الملوك حقًّا ، كانت حتشبسوت . لأن كليوباترة — مثل شجرة الدر — كانت ، قبل كل شىء ، امرأة ؛ لها كل صفات الأنثى من قوة محركها الضعف . وسيطرة عن طريق اللعب بالعواطف ، واستغلال حب الرجال . ومن قدرة على حبك المؤامرات والحيل . كانت حياة كليوباترة سلسلة من المغامرات ، تختلط فيها السياسة بالعاطفة . فعلاقاتها الغرامية — أو على الأقل ما حفظه التاريخ منها — كانت ذات هدف سياسى ، سواء عشقت ابن بومبيوس الكبير . أو انطوت وتكورت فى أحضان قيصر ، أو فتحت صدرها البض ليغوص فيه رأس أنطونيوس . ولكنها . وقد قاربت الأربعين . جربت أخيراً حظ كاليبسو من تليماك ، وعرفت يأس الملكة ديدونة من إخضاع إنياس ، فجرى عليها مع أكتافيانوس ما جرى على ملكة قرطاجة مع بطل الإنيادة . وآثرت الموت على الحياة عندما تحققت من بطلان سحرها .

وشجرة الدر ، كانت حياتها هى أيضاً حياة أنثى ، ولكن فى الحلال . ووراء أستار « البردة » . حكمت على بعلها التركمانى إيبك بتطليق ضرتها أم ولده . فنفذ حكمها صاغراً . وعندما تحققت بطلان سحرها ، أو عصيان أوامرها . وسار عز الدين إيبك فى إجراءات الخطبة لمصاهرة صاحب حلب ، دبرت قتل زوجها شر قتلة ؛ وكانت كتلك الحيات التى يقال إنها تموت إذا ما أفرغت سمها القتال ، ولكن أعداءها لم يمهلوها . بل سحقوا رأسها بالقباقيب سحقاً ، ورموا جثتها عريانة فى خندق القلعة .

أما حتشبسوت فكانت المرأة — الرجل حقًّا . كانت المسترجلة بالمعنى المعاصر . على الأقل فيما عرفناه عنها ، وحدثتنا به آثارها . ولقد ضحكت سخرية يوم عرفت

أن بعض المؤرخين المحدثين يتهمون ملامحها بمهندسها « سنن — موت » ، ذلك لأن الصورة السيكولوجية التى بقيت لنا عن تلك المرأة الغريبة ، ليس فيها سوى قليل من الأنوثة . ولست أعنى أن عملية جراحية حديثة كانت تحولها إلى رجل ، فإننا نعرف للملكة المصرية بنتين . والقليل الذى نراه من صورها لا يمكن الاستدلال منه على أكثر من أنها مثلت نفسها فى ملابس الفرعون . ولست أجد فارقاً كبيراً بين تمثالها من حجر الجير الذى استصلحه الأميريكان . والموجود بمتحف المتروبوليتان . وبين التمثال الرائع لتحوتمس الثالث بالمتحف المصرى . فى التمثالين نرى صورة من صور الشباب . وقد غطى كل منهما رأسه بذلك الغطاء المصرى الصميم ، الذى يغطى رأس خفرع . ورأس أبى الهول ، وستر كل منهما النصف الأسفل من جسده بالمئزر المصرى القديم . ونرى حتشبسوت على مسلتها الملقاة قرب البحيرة المقدسة بالكرنك . وهى فى هيئة شاب يافع ، يلبس التاج الأزرق المنتفخ ، يطل منه الصل الملكى فوق الجبهة . وفوق صدرها العقد الملكى ذو السبع « بوردورت » . أو الستة الصفوف ، وفى خصرها المئزر يغطى ساقيها حتى فوق الركبة . وقد ركعت بين يدى آمون — رع ، وأولته ظهرها ، وإله طيبة يرفع يديه فى حركة من يباركها . أو ربما فى حركة إلباسها التاج الأزرق . وفى أعلى الصورة . بالحفر البارز . رمز السماء بنجومها فى خط مستقيم . وتحته نقش اسم « آمون — رع . رب السموات » . وقوله : آتينا ابنتى معا — كا — رع ملك الأرضين ، وتراث آتوم ، عربوناً دائماً على حبى لتلك التى وهبناها الحياة » .

وفى صور أخرى لها . تظهر بلحيتها المستعارة ، كعادة ملوك الفراعنة ؛ وهى فى جميع صورها تمثل مفلطحة الصدر . وجاء عليها حين رفعت حرف التأنيث من اسمها . فهى ملك مصر لا ملكته . وهى الفرعون لا الفرعونة ، وهى حتشبسو لا حتشبسوت . ومن أسف أن لم يعثر على مومياتها من بين المومياات التى عثر عليها فى القرن الماضى بقاع بئر عند معبد الدير البحرى .

وحتشبسوت من أهم شخصيات الأسرة الثامنة عشرة . خلفت لنا آثاراً عظيمة . من أمثال مسلتى الكرنك : القائمة . وهى أعلى المسلات بالكرنك . والنائمة . ثم المعبد الصغير الأنيق هناك . المعروف بقاعات الملكة . وهيكل سفينة آمون .

والصرح الثامن بالكرنك . ولكن أعظمها معبدها الكبير بالدير البحرى . « رائعة الروائع » ، وهو من طراز يختلف عن الطراز المعروف فى معابد الدولة الحديثة . يظهر أنه يستوحى طراز المعبد الجنائزى لمينتوحوتب ، الذى ما تزال بقاياه المهدمة قائمة بالدير البحرى ، إلى جانب معبد حتشبسوت ، والغالب أن كان هذا الطراز سائداً فى الدولة الوسطى .

ومع أن الملكة الصعيدية حكمت أكثر من عشرين عاماً ، فإننا لا نجد لاسمها أثراً فى القوائم الملكية المعروفة ، ومحى اسمها من الخانات (الخراطيش) الملكية ، وضرب على الخطوط التى تمثل شخصها فى الصور الحائطية .

وحتشبسوت ما زال أمرها لغزاً تاريخيًّا ، تضارب الأثريون فى طريقة حله ، وذهب العلامة كورت زيته فى التعقيد شوطاً بعيداً . ليفسر التسلسل التاريخى فيما بين تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث . ولم يؤخذ برأيه فيما نعلم ، وذهبت تفسيراته إلى غير رجعة . لأن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذا اللف والدوران ، فإن تحوتمس الثانى ، وقد تزوج أخته حتشبسوت ، ترك بعد وفاته ابنتين شرعيتين — أى من أمهات ملكية — وولداً غير شرعى ، أى من زوجة غير ملكية . وقانون الوراثة المصرى كان يعنى بالأمومة [تبعاً للنظام المتريارکالى] . ولكن الإمبراطورية التى أسسها تحوتمس الأول بجيوشه حتى نهر الفرات شمالا ، وإلى الشلال الثالث جنوباً . كانت بحاجة إلى ملك يقود الجيوش . والغالب أن الحزب العسكرى خشى أن تجلس على العرش امرأة ، فانتهى إلى أن يولى هذا الابن غير الشرعى ، وهو تحوتمس (الثالث) . على أن يتزوج ابنة عمته حتشبسوت زوجة وأخت تحوتمس الثانى ، وابنة تحوتمس الأول . ولتوكيد الحق الإلهى لتحوتمس الثالث أشار فى آثاره — عندما بلغ مبلغ الرجال ، وتولى الملك وحده . بعد موت حتشبسوت — إلى أن الرب آمون بذاته هو الذى اختاره لعرش آبائه . فتقول النقوش التى وجدت بالكرنك بأن تحوتمس هذا ، وهو الابن غير الملكى . كان يدرس استعداداً لتولى وظيفة كهنوتية بمعبد آمون . وأنه فى خلال حفل دينى . وقد حمل الكهنة تمثال آمون من قدس الأقداس . فتجول التمثال المحمول هنا وهناك وكأنه ينشد ضالته — على طريقة النعش فى عصرنا حين يطير بميته ! — ثم وقف فى مواجهة الشاب تحوتمس .

بمكان يعرف بموقف الملك ، وبذلك أعلن آمون عن فرحته بابنه ، وفى هذا يقول تحوتمس الثالث :

« لقد فتح لى أبواب السماء ، فتح لى مغاليق أفق رع [أى قدس الأقداس] . فاندفعت طائراً كالباشق الإلهى . أتأمل كيانه فى كبد السماء ، وصليت لجلالة الرب ، ورأيت فى مسار الأفلاك وجه ذى الجلال والإكرام . لقد ولانى رع بنفسه ، وتوجنى بالتيجان المرفوعة على رأسه . وعقد الصل الملكى على جبينى ... وتلقيت عنه مراسم الألوهية ، ووضع لى الأسماء الملكية العظيمة » .

ولما كان تحوتمس عند توليته الذى يشير إليها حدثاً متزوجاً من طفلة — ابنة حتشبسوت — فقد اضطلعت عمته وحماته هذه بشئون الحكم ، كوصية على تحوتمس الثالث ؛ ثم أزاحت الغلام . وتولت الملك حوالى اثنين وعشرين عاماً [١٥٠٥ حتى ١٤٨٣ ق .م.]

وتصف نقوش معاصرة الموقف عند موت تحوتمس الثانى على الوجه التالى :

« وصعد الملك إلى السماء ليدرج فى عداد الآلهة . وتولى ابنه [أى تحوتمس الثالث] مكانه ملكاً على الأرضين ، وجلس على عرش من أنجبه . وساست حتشبسوت . ابنة الرب . أمور الدولة حسب ما رسمت ، وأحنت مصر رأسها تعمل من أجلها ، تلك النطفة من صلب الرب . لقد كانت حتشبسوت الحبل الذى تعتصم به مصر السفلى . والعماد الذى تعتمد عليه مصر العليا . وكانت الدفة المستقيمة للدلتا ، والسيدة التى تدبر الخطط . وتصدر الأوامر . فينزل السلام على وجه الأرض . »

وليس معروفاً ما جرى لتحوتمس الصغير [الثالث] أيام استيلاء حتشبسوت على العرش . فاسمه يظهر فى النقوش خلف اسم عمته فى أول الأمر . ثم ما يلبث أن يختفى هذا الاسم طوال حكم عمته . حتى يتولى الملك وحده ، بعد موت الملكة المعظمة نفسها . ولا يمكن أن نتصور أن هذا الشاب — الذى سيصبح أعظم ملوك مصر قاطبة — راضياً بأن يهمل هذا الإهمال الطويل . فهل كان معتقلا أم كان هارباً ؟ من يدرينا ؟ إنما نحن نفهم لماذا يحرص بعد موت عمته على أن يدق ويضرب ويمحو اسم الملكة حتشبسوت ورسمها أينما كان. فلم يكن الأمر مجرد إبعاد اسم حتشبسوت من القوائم الملكية لأنها امرأة . وقد حكمت مصر القديمة ملكات

مشهورات . وإنما كان عملا مسوماً بالتشفى والغضب . وقد سبق القول بأن الحب الذى استخلصت منه موميات ملوك الأسرة وكثير غيرهم ، لم يكشف عن مومياء حتشبسوت ؛ فهل جرى التشفى أيضاً على جثمان الملكة ؟

ثم كيف استطاعت الملكة الاستئثار بالحكم إلا أن تستند إلى قوة حزب معين ؟ ونحن نعرف أسماء زعماء ذلك الحزب الذى آزرها ؛ وأول هذه الأسماء « سنن — موت » ، الوزير والمعمارى الكبير ، ثم « هابو — سنيب » كبير الكهان ، ثم حامل الأختام « نه — سى » ، فوزير الخزانة « بيت الذهب والفضة » ، توتى . حزب الملكة إذن هو حزب آمون الإله الأعظم . وكان كبير كهنته ، « هابو — سنيب » ، يجمع فى يديه السلطتين الروحية والزمنية ، لأنه كان رئيس وزراء الملكة . ومن هنا يمكن أن ندرك ما بلغته الرئاسة الدينية فى الدولة الحديثة من سؤدد ؛ والأوج الذى ارتفع إليه آمون — رع وسدنته .

وتعلن الملكة ، على جدران معبدها بالدير البحرى ، إخلاصها لربها . وأنها فى سبيل آمون أوفدت ، تحت إمرة « نه — سى » ، بعثتها التجارية إلى بلاد « بونت » ، وعادت بأشجار العطر والبخور وكثير غير ذلك من منتجات الجنوب :

« وهذه هى المرة الأولى تقدم فيها تلك الأعطار الثقيلة لآمون ، ومعها عجائب البونت وغرائبها . وأعدت جلالتها بنفسها عطراً شذيًّا ، ضمخت به جسد الرب ، فتضوع كما يتضوع الندى الإلهى . . . وانتشر أريجه فى الأقطار والآفاق حتى بلاد « البونت » ، وتوهجت بشرة الإله ، وكأنها عجنت بالنضار . وتألقت طلعته كأنها النجوم النيرات » .

ولا تفتأ حتشبسوت تؤيد حقوقها الملكية على جدران معبدها الكبير بالدير البحرى ، وفى لهجتها تحد لا يخفى . فهى تؤكد أن أباها ، تحوتمس الأول ، هو الذى اختارها وأعدها لتتولى العرش . وأن الآلهة أمنت على اختياره .

ثم تذهب إلى أبعد من كل هذا ، فتدعى بأن أباها الحقيقى كان آمون بنفسه ! وترسم على جدران « بهو الميلاد » قصة حمل أمها بها وولادتها ، فتعلن على رءوس الأشهاد أسرار ميلادها الإلهى ، الذى يثبت حقًّا لها لا ينازع . وإعلانها هذا ليس فيه من جديد على الملكية المصرية ، منذ تولى الملك ، قبل عهد الأسرات ، آلهة

وأنصاف آلهة استخلفوا على عرش مصر ملوكاً فى صورة الآدميين ، كانوا أبناء رع ، وأبناء أوزيريس ، وكل منهم فى ذاته هوروس المتجسد . بيد أن قصة ميلاد حتشبسوت تتخذ هناصيغة مادية ، تصور لأول مرة على جدران « رائعة الروائع » ، معبد الدير البحرى .

كانت حتشبسوت قبل ذاك تدعى فقط « السيدة الملكية العظيمة » : هورت [صيغة المؤنث لهورس] ورعت [صيغة المؤنث] لرع ، ولكنها ، فيما بعد ، بدأت تمثل نفسها فى هيئة الرجل ، بالمئزر القصير واللحية القصيرة . ويتحول اسمها المؤنث ، حتشبسوت ، إلى المذكر حتشبسو ، ومعناه « أول النبلاء » وكان قبلا « أولى النبيلات » . ثم تصور بالحفر البارز سلسلة من النقوش تمثل ميلادها الإلهى وسلسلة أخرى تمثل تتويجها .

فأبوها الفعلى ، آمون — رع ، يجتمع فى الصور بأمها الإنسانية أحماسى يجلس الإله آمون — رع فى مواجهة الملكة أحماسى على سرير له رأس أسد ، وأرجله مخالب أسد . وتلتف الساق بالساق فى حماية إلهة السماء « نيت » . وإلهة أخرى : « سلجت » . ويحف بالرسم نص شعرى لا يدع مجالا للشك فى طبيعة الاتصال بين الرب والملكة أحماسى :

« هذا ما يقوله رب الأرباب آمون — رع ، عندما تمثل لها بشراً سوياً ، وتقمص صورة ملك الجنوب وملك الشمال : تحوتمس الأول . دخل على الملكة وهى تضطجع فى خدرها بالقصر الجميل ، فأفاقت لنفسها على أريج الإله ، وعقدت الدهشة لسانها لمرأى جلالته يتجه إليها ، ويجتمع بها ، ويضع قلبه على قلبها . ثم يعود الرب إلى صورته السماوية ، وهى تتملى من جماله ، وأعطافها ترجف بحبه ، وعبير الإله ، وعطر فمه ، يتضوعان بروائح أفاويه الجنوب .

« وهذا ما تقوله الزوجة الملكية أحماسى فى حضرة آمون : ما أعظم نفسك ، وأشرف محضرك ، وأنت تجتمع بجلالتى فى رقة ، وذاك يسرى فى كل أعضائى ! »

وبعد ما ينال ذو الجلال وطره منها ، يقول لها : سيكون اسم الابنة التى تلدين : « سنيدة النبلاء التى من صلب آمون » ؛ وستستوى على العرش ، تنوء بالخير والإسعاد على طول البلاد وعرضها ، فهى من روحى وقلبى ، إنها بنت مشيئتى .

وتاجها هو تاجى ، حتى تحكم الأرضين ، وتقود « كا» وات الناس أجمعين » .

وصور أخرى تمثل « خنوم » ، الرب الفخرانى ، وهو يسوى على دولابه الصورة الدنيوية للطفلة الملكية ولعفريتها — وهو القرين « كا » — وعند ما تحل اللحظة المرصودة ، يجىء الملكة أحماسى المخاض ، فإذا الطفلة ، وعفريتها « كا » ، يخرجان من تحتها ، فيقبل آمون « الكا » والطفلة ، ويهدهدهما ، ويعمدهما عماد التطهير الأول ، ويعدهما بتولى عرش هوروس ، وذلك بحضرة الآلهة .

وصور تمثل ما حدث لحتشبسوت : « البتول الزهراء » ، عندما توجها أبوها الإنسانى ، بمعبد « إيون » ، فى هليوبوليس ، وحشد لها الفرعون الشيخ أشراف بلاطه ، وكبار رجال دولته ، وقدم لهم ابنته ، وهو يحملها بين يديه فى الحركة التقليدية للحماية :

« هذه هى الطفلة خنوم — آمون — حتشبسوت ، التى تخلفنى ، التى تجلس على عرشى ، التى تصدر الأوامر فى كل مكان بالقصر الكبير — فر عاو — إنها وايم الحق ، هى التى تسير أقداركم ، وهى التى تسمعون كلامها ، وتصدعون جميعاً بأوامرها . من أخلص لها طال بقاؤه ، ومن تقوّل عليها بسوء فالمنون لا محالة مدركه . أقبلوا سراعاً لتبايعوها أمام الملك ، وقد سمعتم اسم جلالتها ، كما فعلتم باسمى . لأن هذه الإلهة ابنة الرب ؛ فالأرباب حراسها على كر الأيام ، الذائدون عنها على مر العشى . بهذا قضى سيد الآلهة .

« وسمع الأشراف الملكيون ، فخروا سجداً لكل الآلهة ، ودعوا للملك تحوتمس الأول . وخرجوا مهللين يرقصون فرحاً ويطيرون هناء . ثم سجل التوقيع الملكى « نخب » ، الأسماء الملكية لحتشبسوت هكذا : الإله آمون — رع أوصى كتاب التوقيع بتأليف الأسماء حسب ما جاء فى النطق الإلهى » .

ثم تقدم الملكة بواسطة الكاهن « أنموتيف » فى « الفرعاو » ، حيث أقيم جوسقا العرشين الملكيين ، حتى ترقى عرش مصر العليا ، ثم عرش مصر الدنيا ، رمز اتحاد الوجهين . ويدور « الموكب حول السور » ، ذلك الطقس المعروف فى أعياد التتويج ، منذ عهد « مينا » ، والكهنة مقنعون برأس الصقر « هوروس » ، ورأس الكلب « ست » . يضعون على جبين الملكة تاج الوجه القبلى المخروطى الأبيض ، وتاج الوجه البحرى الأحمر المستدير . وتظهر فى مقدمة الموكب الشعارات

الطوطمية التى نراها فى آثار ملك الأسرة الأولى « نعر — مر » .

وتختم الاحتفالات — أو سلسلة التصاوير — بتقديم تحوتمس الأول طفلته الملكية حتشبسوت إلى الثالوث الطيبائى المعظم : « آمون — موت — خونصو » ، فيستقبلها كل منهم ، ويباركها ، بينما يسجل « توت » ، فى لوحه المحفوظ ، اليوبيلات الثلاثينية الكبيرة أى « أعياد سد » فى حياة الملكة مستقبلا . ويحرر صيغة البلاغ الذى يعلن به للتاسوع الأكبر خبر تتويج حتشبسوت . فيغطها كل منهم إعلاماً بارتقائها إلى المقام الفرعونى ، وهو مرتبة من مراتب الألوهية .

وبهذه النعوت والصور المنقوشة على الدير البحرى وغيره ، نعرف أن حتشبسوت حذقت فنّا اشتهر به فراعنة الدولة الحديثة ، فكانوا أول من عرف الطبل والزمر والدعاية ، ومارسوها كما لم يمارسها الدكتور يوسف جوبلز ، بعدهم بحوالى أربعة آلاف سنة !

وإذ تتولى حتشبسوت العرش المصرى — بالقوة أو بالحيلة أو بالطنطنة ، لا يهم — تكرس حياتها لصناعات السلام والحضارة ، وتأمر بوقف الغزوات والفتوح ، التى بدأها أسلافها بعد طرد الهكسوس ؛ وتعمر الدروب إلى المحاجر ، وتوجه البعثات التجارية إلى البلاد المصاقبة والبعيدة ، على غرار بعثتها إلى بلاد « البونت » ، وهى المسجلة على حوائط الدير البحرى ، تسجيلا رائعاً ، ما أحسبه إلا فى طريقه إلى أن تمحوه الحدثان ، كما أخذت تمحو تصاوير مقابر بنى حسن ، تقاعساً منا وإهمالا . وإن إحساس حتشبسوت بوطنها الغالى يظهر من نقش لها تتحدث فيه عما قامت به من إصلاح وترميم للمعابد التى خربت « منذ قام حكم الأسيويين فى أواريس بالدلتا ، وحين قام أولئك الغرباء الرحل بتدمير كل ما بناه السالفون . لأنهم كانوا فى جهالتهم يعمهون ، كفروا بالرب رع ، والإله آمون . ولم يجئ لتنفيذ ما رسم به الآلهة إلا جلالتها » .

قليل غير هذا ما نعرفه عن الملكة حتشبسوت ؛ والأقوال تضاربت فى تفسير ما تركت لنا من « نشرات دعائية » ؛ ولكن لا تضارب ثمة فى أن معبد الدير البحرى عمل فنى له حساب كبير فى تاريخ العمارة ، يدل على فهم من أنشأوه لخصائص الطبيعة المصرية ، وإحساسهم العجيب بخطوط الربوة العالية المطلة على وادى آمنتى ،

فى طيبة الغربية . وانتفاعهم بتضاريسها فى إقامة الطوابق الثلاثة . بأبهائها ذات العماد .

والقليل الذى نعرفه عن ابنة آمون البكر . يكفينا . فيما أظن . لنؤلف لها فى أذهاننا شخصية « المرأة الذكر » . يعلو قدرها . وهى المصرية الأصيلة . على المقدونية ابنة الزمار . والمملوكة الصالحية . والدة المرحوم خليل !

القيراط الخامس والعشرون

آخر ما كنت أفكر فيه، هو أن أعقد فصلا خاصاً بالملوك فى كتاب ألفته ملحمة للشعب المصرى : شعب — نامه ، لاشاه— نامه ، وملحمة السلام لا الحرب ، ملحمة شعب صناعته الحضارة ، وديدنه المسالمة. أرد فيها الفضل لذويه ، بحق العذابات ، والمحن والرزايا التى تحملها كل تلك الأجيال .

وقد يغتفر لى أن اخترت من الشاهنامة المصرية « ملوكاً » من جنس الأنثى ، ولعل ما دعانى إلى كتابة الفصل السابق هو إعجابى بعمارة الدير البحرى ، وسيدة الدير البحرى. أحببت تلك الملكة المقدام، منذ زيارتى لها أول مرة، فى بطن الجبل، بطيبة المقدسة ، ودراستى المتمهلة لتصاوير البعثة البحرية إلى بلاد « البونت » ، تزين جدران « رائعة الروائع »، وذلك أيام كنت أعنى بالبحر وأحيائه وآذيه ، فوجدت فى تلك الصور المثل الفرد ، فى كل الآثار المصرية — بقدر ما وصل إليه علمى — يصور أحياء البحر ، لا أحياء النيل ، ولا أحياء بطائح الدلتا .

أعجبت بتلك السيدة المسترجلة تمثل نفسها على آثارها رجلا بلحية مستعارة — ولحى الفراعنة كانت كلها مصطنعة ! — وصدر منبسط مفلطح . وعرفتها أيام سلكت المرأة فى أوربا طريقها الوعر نحو مزاحمة الرجل ، فجزت شعرها « آلا جارسون » ، وفلطحت صدرها ، وكشفت عن ركبتيها ، ودخنت السجائر فى المحال العامة ، ولعلها تدخن يوماً الغليون والسيجار. ومع أن جداتنا كن يدخن الشبك والشيشة ، إلا أنهن التزمن خدورهن . أما حفيداتهن فقد خرجن إلى الدنيا يسعين فى مناكبها ، مهندسات وزراعيات وجيولوجيات وخبيرات فى الدم والذرة وعاملات شريفات. وإنى لأستغرب أن لا تعنى سيداتنا المتحررات بأمر أول سيدة فى العالم زاحمت الرجل ، وغلبته ، وذلك منذ نحو ثلاثة آلاف عام . تلك كانت سيدة الدير البحرى ، وصاحبة أعظم مسلات الكرنك ، وأجمل حجراته .

وقد يغتفر لى أيضاً أن توحى كتابتى عن الملكات ، من طرف خفى ، بسخرية من الملوك وصناعة الملك . إذ يبدو لى أن السيدات كن ، فى الأغلب ،

أعظم نجاحاً فى حرفة الملوكية من كثير من الرجال . وسيداتى الثلاث ، إذا جمعنا شملهن على بلقيس ، وزينوبيا — التى استولت على مصر بعض الوقت أيام حكم الرومان ! — واليزابث الأولى ، وكاترين الثانية ، وماريا تيريزا ، يؤلفن باقة من الإناث حكمت وتملكت وساست الرعايا أحسن سياسة ، حتى أولئك اللاتى كانت مغامراتهن الغرامية سلسلة من الفضائح ، كبرت وتضاعفت بحكم المركز السامى لصاحباتها ، وخفت أو تضاءلت أهميتها ، عندما لم يكن لتلك المغامرات أثر فى توجيه السياسة ، ولا فى شئون الحكم .

تندر الخليفة العباسى بالمصريين إذ ولوا عليهم امرأة ، وأبدى استعداده لإيفاد رجال من بغداد ، إذا كانت الرجال قد عزت فى الديار المصرية . ويشاء القدر أن يرد سخرية هذا الخليفة إلى نحره ، بعد مضى سنوات قلائل ، عندما انقض على دولته ملك المغول هولاجو ، يدمر ملكه وحاضرة ملكه ، فلا يجد رجالا يدفعون عنها الكارثة . . وإذا مصر تجد فى رجالها ، وفى المماليك الذين ولوا عليهم السيدة أم خليل ، جيشاً قديراً على صد المغول وضربهم فى عين جالوت ، بعد أن كسروا من شوكة فرسان الصليب ، وكنسوهم من الأرض المقدسة ؛ وبعد ما اقتحم مدينة دمياط عليهم لويس التاسع وفرسان الداوية وتقدم إلى المنصورة فأزاحوهم عنها ، وكسروهم فى فارسكور ، وأسروا الملك وأمراء جنده ، من لم يرد منهم مورد الردى .

ولعلها فرصتى الوحيدة هنا ، أكفر فيها عن سيئتى فى التحدث عن الملوك ، حتى ولو كانوا ملكات ، أن أحدد حظ الشعب المصرى من أحداث تاريخه . وعجب كله عجب أن يحرص التاريخ على أن يحصى علينا العشرين والثلاثين ألف جنازة التى كانت تخرج كل يوم من باب القرافة إبان الوباء ، بل أن يسجل اسم الطاعون المعروف بقارب شيحه ، الذى أخذ المليح والمليحة ، ويتحفنا هنا أبو المكارم ابن إياس بمحفوظاته من الشعر السخيف ، فيروى : قيل مات فى هذه السنة [مجاعة سنة ٦٩٥ هـ] من الناس نحو الثلث :

يا طالبا للموت قم واغتنم هذا أوان الموت مافاتا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا

وأن يتمطى التاريخ فى وصف أكل الناس للكلاب والقطط والفيران والحمير

والبغال ، حتى ليبلغ الجوع بهم أن يخطف الناس بعضهم بعضاً ، ليتبلغوا بهم فى سنى المجاعة .

يحرص التاريخ على وصف خروج المئات والآلاف من ديارهم هرباً من السخرة والعونة ومقاول الضرائب . ويذكرنا بضرب الكرباج ، وسوق المجندين كالأنعام تحت سياط الباشبوزق ، وتوسيط الناس وتكليبهم وشنقهم وقطع رءوسهم ورميهم للحيوانات الضارية ، سواء حدث هذا أيام الاضطهادات الدينية فى عهد المسيحية الأولى ، أو على طوال حكم المماليك والعثمانيين . ثم لا يكاد التاريخ يذكر إلا القليل عن حياة هذا الشعب اليومية ، فى أوقات الرخاء أو فى الأوقات العادية ، إلا أن نطالع ذلك فى «ألف ليلة وليلة» ، أو نشاهده منقوشاً على حيطان المقابر المصرية القديمة . ولولا الشيخ تقى الدين المقريزى وابن تغرى بردى ، وابن إياس ، والجبرتى ، لما تصورنا هذا الشعب المصرى إلا فى بؤسه وذله وشقائه .

لأتصور الشعب المصرى على طول تاريخه الإسلامى — والفضل لمن ذكرت من أصحاب الحوليات العظماء ، وللمقريزى بنوع خاص — عندما أقف بحى الأزهر ، أو تحت الربع ، أو أجلس بباب حلاق بالحسينية أو بالحنفى ، أشاهد بياع البسبوسة يرجو جاره أن يحرس صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصلى فى سيدى البيومى ، أو فى جامع الأشرف برسباى ، ويعود الرجل بعد هنيهة متهلل الوجه ، نظيفه ، وزبيبة الصلاة ، وقد زادت سمارآ . أتصور الشعب المصرى فى تلك العصور ، وفى المدن : بائع الحلوى والخراط والسروجى والبزاز والعطار وصانع الخيام . وعندما أستمع إلى حديث أوساط الناس فى أحيائنا الوطنية ، أستعيد أيام طفولتى بينهم ، فأفهم المعانى المستترة وراء لغتهم السمحة المهذبة ، من أمثال : « يفتح الله » ومعناها : السعر الذى تعرضه غير مقبول . و « صل عالنبى » ، أى فلنبدأ فى الفصال . و « على الطلاق » ، أى لا تصدق كلمة مما سأقول ! و « يا فتاح يا عليم » ، أى أول القصيدة كفر ، وبعدها وياك ، وربنا يكفينا شرك . و « باسم الله » ، أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لا تكاد تكفينى ؛ ثم يتشجع عندما ترفض دعوته ، فيقول « حلفت عليك » ، ومعناها : أيها الأريب لقد فهمتنى ! و « اتوكل على الله » ، يعنى أغرب عن وجهى من غير مطرود ؛ و « دستور إيه يا عم الله

يخليك » ، بعنى شبعنا من هذا الكلام وأمثاله .

هذه لغة شعب فيلسوف مسالم يتكلم « بالكناية » ، وينادى على سلعته بصور شعرية : « يا للى طاب ، وطلب الأكّال ، يا بيض اليمام ، يا ناعم ! » . وبعض هذه النداءات قديم ، وقد اكتشفت المناداة المعروفة على الكتاكيت : « ملاح الملاح » ، فى القرن التاسع الهجرى (عام ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م) . فابن إياس يذكر وفاة بدر الدين الدميرى ، المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية : وكان فاضلا عارفاً بصنعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة . طلق اللسان فى حق الناس ، فكانت الشعراء تهجوه كثيراً :

قد عيل صبرى من خطب ألم به عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فإن غدا الديك سلطاناً فلا عجب فقد غدا قاضياً فى الناس كتكوت

فيرد الأديب على بن برد بك ، مدافعاً عن القاضى كتكوت :

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيــه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من ملاح الملاح

شعب علمه ظالموه الحذر وصون اللسان ، كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المستترة . فما عرفت ، والله ، شعباً فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى حذقه التلاعب بالألفاظ ! ولكن الكيل قد يطفح أحياناً ، فإذا بالشعب المصرى يرفع صوته بالهجاء الصريح :

باشا يا باشا يا وش القمــلة
من قال لك تعمل دى العملة

أو « إيش حا يجيلك من تفليسى ، يا برديسى ! » أو « يا رب يا متجلى ، اهلك العثمانلى ! » .

وإذا أردت أن تعرف المصرى فى صراحته ، وشباب تاريخه ، قبل أن تنقله قرون الظلم من التصريح إلى التلميح ، فاقرأ قصة « الفلاح الفصيح » فى الأدب الفرعونى ، لتسمعه يرفع عقيرته بالشكوى من كبار موظفى الدولة ؛ وأنا أقدم خلاصة وافية لها فى فصل من فصول هذا الكتاب .

وأتصور الشعب المصرى فى الريف كما هو اليوم وكما سيكون غداً وبعد غد : ينظر إلى المدينة كأنها مالكته ، وصاحبة الحق الأول فيه ، لا ينازعها حقها ، وكأنه لم يخلق إلا ليغذى المدينة بقمحه وفوله وعدسه وعسله وبصله وسمكه ولبنه . وإلا فماذا يصنع بكل هذا الخير أغدقته عليه السماء ؟ وكما أن الشعب المصرى القديم اعتقد بأن ملوكه من صلب الأرباب ، فقد رضى بأهل المدينة كأبناء عمومة ، ولو من بعيد ، للآلهة ! وقد تبادله المدينة اليوم بشىء مما تصنع الحضارة . ولكن ماذا كانت تقدم له المدينة فى الزمان القديم ؟ حتى ولا هدمته البيضاء والسمراء والزرقاء فيما أظن . لذلك تقول الاشتراكية بأن تطور المجتمع الزراعى لا يحدث إلا فى بطء شديد . وأن العمال هم قوات الاشتراكية الزاحفة . فالعامل فى المدن سريع الإدراك لحظه من الحياة ، حاضر الثورة على حاله . أما الفلاح ، فما حاجته إلى النظريات وهو القائل : هذه الأرض ، وما تنبت ، رزق الخالق لمخلوقاته من ناطق وصامت ، ليس لى أن أدعى فيها حقًّا أكثر مما قدر لى رب الرزق والعطاء . أما العامل فما أسرعه إلى التذمر والشكوى ، ولسان حاله يقول : وماذا قدم صاحب المصنع غير المال لشراء الآلات ؟ ومن أين حصل هذا المال إلا من عرق أمثالى ؟

أخشى أن أكون تعديت حدودى فى هذا التعقيب على حديث الملكات ، إنما أردت أن نعرف ، ولو مرة ، ماذا كان حظ الشعب المصرى من ثروة بلاده على طول تاريخه ؛ وبلوغ هذا يعد من أصعب الدراسات ، لحاجتنا إلى الوثائق . وهذه ، إذا زاد عددها عن حد معقول — كما هو الحاصل فى دراسات التاريخ الحديث — استعصى فحصها ؛ وإذا كانت قليلة ، كان الاعتماد عليها فيه الكثير من الحدس . وعندما يحدثك المؤرخون عن اقتصاديات بيزنطة ، أو جمهورية البندقية أو بيت المديتشى ، فكل ما أرجوه لك هو التوفيق فى استيعاب ما يزعمون ؛ ونصيحتى أن لا تحسن الظن كثيراً بتقديرات أولئك الجهابذة ، وخير لك أن تتحصن بالشك والريبة فيما يقولون .

أما إذا حاول مؤرخ أن يحدثك عن اقتصاديات مصر القديمة ، فمثله مثل ذلك العلامة الموسيقى الذى راح ينفخ فى مزامير الفراعنة ، ويقيس أطوال أوتار قيثاراتهم ، ويعد خروق نايانهم وشبابانهم ، ويفحص نقوش مقابرهم ، ليحدثك

حديث الواثق عن أسلوب تآليفهم الموسيقية فى الدولة الحديثة ، ويقارنها بموسيقى الدولة القديمة ، أو بمؤلفات فاجنر وديبوسى !

إنما عثرت لك على حسبة بسيطة من صدر الدولة المملوكية . فى عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين ، فى أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٧ هـ) ؛ وتقول هذه الحسبة بأن الروك الحسامى قسم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً . أربعة للسلطان . وعشرة للأمراء والإطلاقات ، وعشرة للجند .

هل تحسن الجمع ؟ أظن أننا لا نخطئ فى الحاصل هنا ، فهو أربعة وعشرون قيراطاً . أين منه نصيب الشعب المصرى ؟

احفظ هذه الحسبة البسيطة ، فإنها لم تجئ من برما ، وإنما نقلتها عن ابن إياس ويمكن الاطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى ، من عهد مينا حتى ... فلنقل حتى بيع أراضى الدائرة السنية فى أواخر القرن الماضى .

وقد تتغير أرقام المعادلة . يعدلها الولاة والملوك والسلاطين ؛ وقد يدخل فى الحسبة الباشا العثمانى . والباب العالى . والاستراتيجوس الرومانى . والخواجات ، وصرة الأراضى المقدسة وغلالها ، وديون الخديو إسماعيل ؛ ولكنها تظل معادلة صحيحة . طرفها الثانى لا يتغير ، فهو هو أربعة وعشرون قيراطاً . وتلك ميزة النظريات الرياضية الثابتة على ممر الدهور : البساطة والدقة . معادلة الاقتصاد المصرى ، والمالية المصرية . تدخل فى حكم قوانين الطبيعة : كالنظرية الذرية ، وقانون تمدد الغازات ، والجاذبية الأرضية ؛ هى شىء يعادل . فى دقته وثباته ، حساب درجة تجمد الماء المقطر تحت ضغط جوى واحد .

ولكن أين نصيب الشعب المصرى من هذه المعادلة ؟ لا عليك إذا أضفت إليها س . وما دام المصرى يأكل ، ولو من خشاش الأرض ، ويلبس ، ولو هدمة زرقاء ، ويشرب الماء ، ولو بطينه ، من نهر قال له المستكشف الكبير حايد ابن عمران إنه رآه بالعينين التى فى رأسه ينبع من الجنة ، فلابد أن يكون للمصرى نصيب فى خير بلاده ، خارجاً عن الأربعة وعشرين قيراطاً ، رمزنا إليه بحرف السين . ثم توصلنا بعد جهد جهيد ، واستعانة بآلة الكترونية حاسبة ، إلى معرفة مقدار س هذه ، وإليك البيان :

كان أهلنا . أيام الاحتلال البريطانى والاستغلال الأوربى والليفانتى . يجيبوننا عن سؤالنا : لماذا اختص الله الخواجات بكل هذا الخير ؟ تقول الجدة . أحكم الحكماء : « لهم الدنيا يا بنى . ولنا الآخرة » .

هل عرفت نصيب الشعب المصرى من خيرات أرضه ونيله وشمسه ؟

إنه القيراط الخامس والعشرون . ومكانه . . . مملكة السماء !